الباب السابع والعشرون

مذهب الروم الكاثوليك

١٠٩٥ — ١٢٩٤

الفصل الأول

عقيدة الشعب

يعدّ الدين من كثير من الوجوه أكثر أساليب الإنسان طرافة لأنه آخر ما تفسر به الحياة ، وهو سبيله الوحيدة لاتقاء الموت . وليس فى تاريخ العصور الوسطى كله ما هو أعظم أثراً فى النفس من الدين ، فإنك تراه فى كل مكان ، ويكاد يكون أعظم القوى فى تلك العصور . وليس من السهل على من يعيشون الآن منعمين تتوافر لهم جميع حاجاتهم أن يدركوا حق الإدراك ، ما كان فى تلك العصور من فوضى وعوزهما اللذان شكلا عقائد الناس فى خلالها . ولكن من واجبنا أن ننظر إلى ما كان عند المسيحيين واليهود من خرافات ، وأسرار خفية ، ووثنية ، وسذاجة ، وسلامة طوية ، نقول إن من واجبنا أن ننظر إلى هـذا كله بنفس العطف الذى يجب أن ننظر به إلى عنائهم ، وفقرهم ، وأحزانهم ، وإن فرار الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء من « الدنيا ، واللحم ، والشيطان » إلى أديرة الرجال والنساء ليوحى إلينا بما كان يسود ذلك الوقت من اضطراب ، واختلال أمن ، وعنف أوفت على الغاية أكثر ممـا يوحى بجبن أولئك الفارين وخور عزيمتهم . وبدا أن من البدائه أن لاسبيل إلى السيطرة على الدوافع البشرية

الوحشية إلا بقانون أخلاقى تويده قوة تعلو على القوى البشرية . وكان أكبر ما يحتاجه العالَم وقتئذ هو عقيدة توازن المحن بالآمال ، وتخفف من وقع الحرمان بالسلوى والعزاء ، وتزيل من ملل الكدح بخيال العقيدة ، وتمحو قصر الأجل بعقيدة الخلود ، وتضفى على المسرحية الكونية معنى ملهما يشرفها ويرفع من قدرها ، لولاه لكانت موكبا لا معنى له ولا يمكن احتماله ، موكبا من الأنفس ، والأجناس ، والنجوم ، تهوى واحدة بعد واحدة إلى الفناء الذى ليس منه محيص .

وسعت المسيحية إلى الوفاء بهذه الحاجات بفكرة حماسية رائعة عن الخلق والخطيئة الآدمية ، والأم العذراء ، والإله المعذب ، والنفس الخالدة التى قُدّر عليها أن تواجه يوم الحساب فيقضى عليها بالتردى فى الجحيم إلى أبد الآبدين ، أو أن تنجو وتنال النعيم السرمدى على يد كنيسة توفر لها بأسرارها المقدسة البركة الإلهية التى حلت على العالم بموت منقذه . وكانت حياة الكثرة الغالبة من المسيحيين تجول وتجد معناها فى هذه النظرة الشاملة إلى العالم . وكان أعظم ما أهدته العقيدة الدينية إلى العالم فى العصور الوسطى هو ثقته بأن الحق سيعلو آخر الأمر ، وأن كل نصر ظاهرى للشر سيفنى آخر العهد حين يظفر الخير بالشر فى العالم كله ، وتلك ثقة تعلى من قدر البشرية وتدعم كيانها .

وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة المسيحية واليهودية والإسلامية . وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيداً ليوم الحساب الأخير ، بقى هذا الاعتقاد بعد حبوط مسعى الرسل ، ومرور العام المتمم للألف بعد المسيح ، ومخاوف أربعين قرناً وآمالها . نعم إن هذا الاعتقاد أضحى أقل وضوحاً وأضيق انتشاراً مما كان قبل ، ولكنه لم ينمح من النفوس ، فقد قال روجر بيكن Roger Bacon فى عام ١٢٧١ : إن « العقلاء من الناس » يرون أن نهاية العالم قد قربت[1] ، وكان كل وباء شامل ، وكل

كارثة مدلهمة ، وكل زلزال مروع ، وكل مذنّب يظهر فى السماء ، وكل حادثة غير عادية ، كان كل شيء من هذا القبيل يعد نذيراً بنهاية العالم ، وحتى إذا ظل العالم باقيا فإن أرواح الموتى وأجسامهم ستبعث من فورها(*) بعد وفاتها لتحاسب على ما قدّمت من خير وشر .

وكانت تجيش فى صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكنهم كانوا يخافون النار خوفا واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، وكان فى الدين المسيحى فى العصور الوسطى كثير من الرفة والرأفة ، ولكن رجال الدين والوعاظ الكاثوليك ، والبروتستنت الأولين ، كانوا يشعرون بأن من الواجب عليهم أن يروعوا الناس بأهوال الجحيم(**) . ولم يكن المسيح فى هذا العهد هو « عيسى الوديع الرقيق » ، بل كان هو المنتقم الجبار لكل ما يرتكبه البشر من آثام . وكان فى الكنائس كلها تقريباً رمز من يمثل المسيح فى صورة قاض ، وكان فى الكثير منها صور ليوم الحساب ، تمثل ضروب التعذيب التى يلقاها الملعونون تمثيلا أشد وضوحاً من النعيم الذى يتمتع به السعداء المقربون . ويقال إن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس Bôris ملك بلغاريا باعتناق الدين المسيحى بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر الملكى(٤) . وكان كثيرون من المتصوفة يدعون أنهم رأوا فى أحلامهم صوراً للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب(٥) ، ونقل إلينا الراهب تنديل Tundale من رهبان القرن الثانى عشر تفاصيل لها دقيقة : فقال إن فى وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتهبة من الحديد بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط

(*) وكانت النظرية المسيحية القائلة بأن حساب الموتى سيؤجل إلى « يوم الحشر » الذى سيفنى فيه العالم ، كانت هذه النظرية قد استبدلت بها العقيدة القائلة إن كل إنسان سيحاسب بعد موته مباشرة(٢) .

(**) قارن هذا بقول القائد وليم بوث William Booth (١٨٢٩ — ١٩١٢) عن أساليب وعاظ جيش النجاة : « لا شيء يؤثر فى قلوب الناس كما تؤثر فيه الأشياء الرهيبة المروعة . فهم لا يتأثرون إلا إذا تصاعد أمام أعينهم لهيب الجحيم »(٣) .

الألم ، ويداه طليقتان يمدهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب . ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد فى النار مرة وفى الماء الزمهرير مرة أخرى ، أو يعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها فى النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج . وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين . وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هـــذه الآلام المختلفة التى لا يحصى لها عد[٦] . أما الكنيسة نفسها فلم يصدر عنها رسمياً قول يحدد مكان النار أو يصفها ، ولكنها كانت تعلن سخطها على أمثال أرجن Origen الذين يرتابون فى حقيقة نيرانها المادية[٧] . ولو أن أهوال هذه العقيدة قد نالها بعض التخفيف لأخفقت فى تحقيق غرضها ، ولهذا فإن القديس توماس أكويناس كان يؤمن بأن « النار التى ستعذب فيها أجسام المجرمين نار مادية » وحدد مكان الجحيم « فى أسفل الأرض »[٨] .

ولم يكن الشيطان فى خيال العامة من أهل العصور الوسطى . وفى خيال رجال من أمثال جريجورى الأكبر ، رمزاً أو كناية أو تشبيها ، بل كان جسما حقيقيا حياً من لحم ودم ، يغشى كل مكان فى العالم ، يغوى الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر . وكان من المستطاع عادة أن يطرد بقضه وقضيضه بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب ، ولكنه فى هـــذه الحال يخلف وراءه رائحة خبيثة هى رائحة الكبريت المحترق . والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغوى بها ضحاياه ، وينال رضاءهن فى بعض الأحيان — إذا كان لنا أن نصدق النساء أنفسهن . فقد اعترفت امرأة من طلوشة (طولوز Toulouse) أنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها وهى فى الثالثة والخمسين من عمرها ولدت منـــه هولة لها رأس ذئب ، وذنب أفعى[٩] . وللشيطان فى رأى

أقوام العصور الوسطى عدد لا يحصى من أعوانه الأبالسة ، يحومون حول كل نفس ، ويعملون دائبين على جرها إلى ارتكاب الإثم . وهؤلاء أيضاً يحبون أن يضاجعوا النساء اللاتى يهملن أنفسهن ، أو ينمن وحدهن ، أو ينقطعن للدين والعبادة[١٠] . وقد وصف الراهب ريكالم Richalm أولئك الأبالسة بأنهم « يملأون العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا فى كل زمان ومكان . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى واحد منا حيا يرزق ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم »[١١] . وكان الناس كلهم تقريباً بما فيهم الفلاسفة أنفسهم يؤمنون بهذا العدد الجم من الأبالسة والشياطين ، ولكن روح الفكاهة المنجية كانت تخفف من رهبة هذا الإيمان بهم ، وكان كثير من الرجال ذوى العقول المتزنة ينظرون إلى أولئك الأبالسة الصغار على أنهم جماعة من الخبثاء أكثر منهم خلائق مروعين . وكان من العقائد الشائعة أن أولئك الأبالسة يتدخلون تدخلا مسموعاً ، ولكنه غير منظور ، فى أحاديث الناس ، ويخرقون أثوابهم ، ويلقون بالأقذار على عابرى السبل . ويقال إن شيطاناً متعباً جلس مرة على خَسَّة فأكلتها راهبة وهى لا تدرى ما تفعل[١٢] .

وأكثر رهبة من العقيدة السالفة الذكر الاعتقاد بأن « كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون » (الآية ١٤ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى) . وكان المؤمنون المستمسكون بدينهم يعتقدون أن الكثرة الغالبة من الجنس البشرى ستردى فى الجحيم[١٣] ، وكان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المعزو إلى المسيح : « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » (مرقس إصحاح ١٦ الآية ١٦) . ووصل القديس أوغسطين على الرغم منه إلى النتيجة القائلة إن من مات من الأطفال قبل التعميد مآله النار[١٤] ، وكان القديس أنسلم يظن أن ليس فى عذاب الأطفال غير المعمدين (الآثمين لأن آدم وحواء قد ارتكبوا الإثم) من المخالفة للعقل والمنطق أكثر مما فى فرض الرق على

أبناء الأرقاء — وهو لا يرى أن فى هذا بعداً ما عن المعقول[١٥] . وقد خففت الكنيسة من هول هذه العقيدة بأن علمت الناس أن الأطفال غير المعمدين لايلقون فى الجحيم بل يلقون فى ليمبوس Infernus puerorum حيث لايكون عذابهم إلا ما يشعرون به من ألم لأنهم حرموا من الجنة[١٦] . وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعاً — كما كانت الكثرة الغالبة من المسلمين ما عدا النبى محمداً تعتقد أن المسيحيين جميعاً — سيلقون فى النار ، وكان الاعتقاد السائد أن « غير المؤمنين سيعذبون[١٧] . وذهب مجلس لاتران الرابع إلى أبعد من هذا فأعلن (١٢١٥) أن لا نجاة لأحد من النار إذا لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة[١٨] . وقرر البابا جريجورى التاسع أن ما كان يأمله ريمند للى Raymond Lully من أن « الله يحب شعبه حباً يؤدى إلى نجاة الناس جميعاً تقريباً ، لأنه لو كان المعذبون أكثر من الناجين لكانت رحمة المسيح خالية من كثير الحب »[١٩] ، وليس ثمة رجل آخر من رجال الدين البارزين أجاز لنفسه أن يعتقد — أو أن يقول — إن الناجين سيزيدون على المعذبين[٢٠] . وقدر برثلد الرجنزبرجى Bertshold of Regensburg ، وهو من أشهر وعاظ القرن الثالث عشر وأحبهم إلى الناس ، نسبة المعذبين إلى الناجين بمائة ألف إلى واحد[٢١] . ويرى القديس تومس أكويناس أن « فى هذا أيضاً تظهر رحمة الله أكثر مما تظهر فى شىء سواه ، لأنه يرفع القليلين إلى معارج النجاة ، التى يعجز عن إدراكها الكثيرون »[٢٢] . وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن البراكين هى أفواه جهنم ، وأن قعقعتها ليست إلا صدى خافتاً لأنين المعذبين[٢٣] ، وكان جريجورى الأكبر يقول إن فوهة بركان إتنا تزيد اتساعا فى كل يوم لتبتلع العدد الذى لا يحصى من الأرواح التى كتب عليها العذاب[٢٤] . وكانت أحشاء الأرض المزدحمة تضم ثناياها الحارة الكثرة الغالبة من جميع من ولدوا من بنى الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر ؛ وفى

ذلك يقول برئلد : أحص رمال شواطئ البحار ، أو الشعر الذى ينبت على أجسام البشر والحيوان من يوم أن خلق آدم ، وقدر سنة من العذاب لكل حبة رمل أو شعرة ، ثم اعلم أن هذه الحقبة من الزمن التى تصل إليها لا تكاد تمثل بداية آلام المعذبين(٢٥) . وكانت اللحظة الأخيرة فى حياة الإنسان هى اللحظة فى الأبدية كلها ، وكان خوف الناس من أن يكون الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة آثماً لم تغفر له ذنوبه ، كان هذا الخوف عبئاً ثقيلا ترزح تحته النفوس البشرية .

وكانت عقيدة المطهر أو الأعراف تخفف من هذه الأهوال تخفيفاً غير قليل . وكانت الصلوات من أجل أرواح الموتى عادة قديمة قدم الكنيسة نفسها ، وفى وسعنا أن نرجع طقوس التكفير عن الذنوب والصلاة على أرواح الموتى إلى عام ٢٥٠ م(٢٦) . وقد تحدث أوغسطين عن وجود موضع يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيراً كافياً بعد موتهم ؛ وقبل جريجورى الأول هذه الفكرة ، وقال إن ما تعانيه الأرواح فى المطهر من آلام قد يخفف ويقصر مداه بفضل دعاء الأحياء من أصدقائهم وصلواتهم(٢٧) ، غير أن هذه النظرية لم تصبح من العقائد الواسعة الانتشار حتى نفخ فيها بطرس دميان Peter Damian حوالى عام ١٠٧٠ من روحه الحماسية وأذاعها ببلاغته . وزاد انتشار هذه الفكرة فى القرن الثانى عشر حين ذاعت قصة تقول إن القديس پتريك St. Patrick أراد أن يقنع بعض المتشككين فأجاز حفر حفرة فى أيرلندة نزل إليها بعض الرهبان ؛ ثم عاد بعضهم . كما تقول القصة . ووصفوا المطر والنار وصفاً واضحة ثبط عزيمة من يريدون أن يحذوا حذوه ، وادعى أون Owen الفارسى الأيرلندى أنه نزل من هذه الحفرة إلى الجحيم فى عام ١١٥٣ . ووصف ما لاقاه فى العالم السفلى وصفاً لاقى نجاحاً منقطع النظير(٢٨) . فقد

أقبل الناس من بعيد لزيارة هذه الحفرة ، ونشأت من ذلك شرور ومساوئ مالية اضطرت البابا اسكندر السادس أن يأمر فى عام ١٤٩٧ بردمها لأنها من الادعاءات الباطلة[٢٩] .

ترى كم من الناس فى العالم المسيحى أثناء العصـــور الوسطى كانوا يصدقون العقائد المسيحية ، إننا نسمع عن وجود ملحدين كثيرين ، ولكن الكثرة الغالبة من أولئك الملحدين كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية ، وقد حدث بمدينة أورليان Orleans فى عام ١٠١٧ أن « رجلين من أكرم الناس أبا وأوسعهم علماً » أنكرا عقائد خلق العالم ، والتثليث ، والجنة ، والنار ، وقالا إنها كلها مجرد هذيان »[٣٠] . ويقول چون السلزبرى John of Salisbury فى القرن الثانى عشر إنه سمـــع كثيرين من الناس يتحدثون « أحاديث لا يقبلها الدين »[٣١] ، ويقول ڤلانى Villani إنه كان بمدينة فلورنس فى ذلك القرن نفسه جماعة من الأبيقوريين ، يسخرون من الله والقديسين ، ويطلقون العنان لشواتهم الجسمية[٣٢] . ويحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٤٦ ؟ — ١٢٢٠) عن قس ، لا يذكر اسمه ، لامه قس آخر على عدم عنايته بالاحتفال بالقداس ، فكان رده أن سأل ناقده هل يؤمن هو حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه ، وبعقيدة التجسد ، وبمولد المسيح من مريم العذراء ، وبالبعث — وزاد على ذلك أن قال هذا كله قد اخترعه القدماء الماكرون ليرهبوا الناس ويسيطروا عليهم(*) ، وإن طائفة من المنافقين يحذون الآن حذوهم[٣٣] . وينقل جرلد الويلزى نفسه قول العالم سيمون التورنائى Simon of Tournai (حوالى ١٢٠١) فى حسرة وألم : « ربّاه ياذا الجلال !

(*) يذكرنا هذ بقول أبى العلاء المعرى :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ديانـاتكم مكر من القـــدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأفلحوا وماتوا فبادت سنة اللؤماء

وبغير هذين البيتين من أقواله وقد ورد بعضها فى الجزء الثانى من هذا المجلد . (المترجم) .

إلى متى تبقى هذه الشيعة المخرفة من المسيحيين ، وتدوم هذه البدعة التى لا أصل لها ؟»[٣٤] . وتقول إحدى القصص المتدارلة عن سيمون هذا إنه أثبت فى محاضرة له عقيدة التثليث بالحجج القوية البارعة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه بنفسه عجباً فقال إن فى وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أخرى أقوى من حججه الأولى ، فلما نطق بهذا — كما تقول القصة — أصيب من فوره بالشلل والعته[٣٥] . وفى عام ١٢٠٠ كتب بطرس رئيس دير الثالوث المقدس Holy Jrinity فى ألدجيت Aldgate بلندن يقول : « من الناس من لا يعتقدون بوجود الله ، ويقولون إن العالم تسيره الصدفة . . . ومنهم كثيرون لا يؤمنون بالملائكة الأخيار أو الأشرار ، ولا بالحياة بعد الموت أو بأى شىء روحى لا تراه العين »[٣٦] . وقد أثار شجن ڤنسنت من أهل بوڤيه Vincent of Beauvais (١٢٠٠؟ — ١٢٦٤) أن كثيرين يسخرون من الرؤى ومن القصص (قصص القديسين) » ويقولون « إنها من خرافات العوام أو إنها بدع كاذبة ، ويضيف إلى ذلك قوله : « وليس لنا أن نعجب من أن هذه القصص لا تقبلها عقول الذين لا يعتقدون بوجود النار »[٣٧] . ولقد كانت عقيدة الجحيم من العقائد التى لا يستسيغها الكثيرون . وكانت بعض النفوس الساذجة تتساءل : « لم خلق الله الشيطان إذا كان قد سبقت فى علمه خطيئته وسقوطه ؟ »[٣٨] . وقال بعض المتشككين إن الله لا يمكن أن تصل قسوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم الغير المحدود ، ويجيب رجال الدين عن هذا الاعتراض بقولهم إن الذنب الذى يرتكبه الآدمى إجرام فى حق الله ، وإنه لهذا يعد إثماً لا نهاية له . ولم يقنع هذا القول ناسجا كان يعيش فى طولوز عام ١٢٤٧ فقال : « لو أننى استطعت أن أقبض على هذا الإله الذى لا ينجى من كل ألف من خلقه إلا واحداً ثم يعذب الباقين ، لانتزعت أسنانه وأظافره كما تُفعل بالخونة المارقين ، ولبصقت فى وجهه »[٣٩] . ولبعض المتشككين أقوال لا تبلغ من

العنف هذا المبلغ كله ، فيقولون مثلا إن نار الجحيم لا بد أن تُكَلِّس الروح والجسم حتى يصبحا عديمى الإحساس بها ويصير « من اعتاد الجحيم مستريحا فيها راحته فى أى مكان سواها »(٤٠) . وتبدو فى نشيد أوكاسين ونيقولت Oueassin et Nieolette (حوالى عام ١٢٣٠) الفكاهة القديمة القائلة بأن الإنسان يلقى فى الجحيم صحابا أظرف ممن يلقاهم فى الجنة(٤١) . ويشكو القسيسون من أن معظم الناس يؤجلون التفكير فى النار إلى آخر لحظة فى حياتهم لوثوقهم من أنهم مهما تكن آثامهم فإن « ثلاث كلمات » (ego-te absolvo) « تكفى لنجاتى »(٤٢) .

ويبدو أنه كان فى القرى وقتئذ كما فيها الآن من لا يؤمنون بالله ، ولكن الكافرين القرويين لا يتركون وراءهم ذكريات تحدث عنهم ، يضاف إلى هذا أن معظم ما وصل إلينا من أدب العصور الوسطى قد كتبه رجال الدين أو أن رجال الدين قد أخفوا الجزء الأكبر منه ولم يبرزوا لنا إلا ما وقع عليه اختيارهم . وسنجد فيما بعد « علماء جوالين » يقولون شعراً يبدو فيه عدم الاحتشام ، ولصوصاً غلاظاً ينطقون بأشد الأقوال تجديفاً ، وأناساً ينامون ويغطون(٤٣) ، بل ويرقصون(٤٤) ويفجرون(٤٥) فى الكنائس ، كما نجد من يرتكبون « العهر ، والنهم ، والقتل ، والسرقة فى يوم الأحد » (كما يقول أحد الرهبان) « أكثر ممن يرتكبون هذه الذنوب فى جميع أيام الأسبوع الذى قبله »(٤٦) . وفى وسعنا أن نذكر فى هذه الصفحة ما لا يحصى من الأمثلة نجمعها من مائة بلد وبلد ، ومن ألف عام وعام . وكلها تدل على ما كان فى العصور الوسطى من نقص فى الإيمان الحق ، وتحذرنا من التغالى فى الاعتقاد بتقوى الناس فى تلك العصور ؛ ولكن العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث فى حو من العبادات والعقائد الدينية ؛ فلقد كانت كل دولة أوربية تأخذ المسيحية فى كنفها وتحت حمايتها ، وترغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة ، وكان كل ملك ، إلا القليل النادر منهم ، يثقل

الكنيسة بالهبات ، وكانت كل حادثة تقع فى التاريخ ، إلا ما ندر منها ، تفسر على أساس من الدين ، وكل واقعة فى أسفار العهد القديم تسبق إلى تصوير شىء فى أسفار العهد الجديد .

ومن أمثلة ذلك ما يقوله الأسقف العظيم من أن داود حين يراقب بشبع وهو يستحم إنما يرمز إلى المسيح إذ يرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا(٤٧). وكان كل شىء عادى طبيعى علامة على شىء خارق للعادة ، كما كان لكل جزء من كنيسة ، فى رأى جيوم ديوراند Guillame Durant (١٢٣٧ — ١٢٩٦) ، أسقف مندى mende ، معنى دينى ؛ فمدخل الكنيسة هو المسيح ، الذى يوصلنا إلى الجنة ؛ وعمدها تمثل المطارنة وعلماء الدين ، الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التى يلبس فيها القس ثيابه هى رحم مريم ، الذى يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين(٤٨). ويقول أصحاب هذه النزعة إن لكل حيوان معنى فى الدين ؛ من ذلك ما جاء فى كتاب فى الحيوان مؤلف فى العصور الوسطى وهو نموذج لغيره من أمثاله : « إذا ولدت لبؤة شبلا ، فهى تلده ميتاً ، وتظل تعنى به ثلاثة أيام حتى يأتى أبوه فى اليوم الثالث وينفخ فى وجهه ، ويبعث فيه الحياة . وبهذه الطريقة عينها أحيا الله جل وعلا ابنه سيدنا عيسى المسيح من بين الموتى(٤٩) .

وكان الناس يسرون بسماع مائة ألف من القصص عن الحوادث ، والقوى ، ووسائل الشفاء الخارقة ، أو يخلقونها خلقاً من عند أنفسهم ، كقولهم إن صبياً إنجليزياً حاول أن يسرق بعض زغاليل الحمام من عشها ، فالتصقت يده بقوة سماوية بالحجر الذى اتكأ عليه ، ولم تفك إلا بعد أن قضى أهله ثلاثة أيام فى الصلاة والدعاء(٥٠). وقدم طفل طعاما لتمثال المسيح الطفل المنحوت فى مزار صور فيه مولده ؛ فما كان من الطفل المسيح إلا أن شكره ودعاه إلى دخول الجنة ؛ ولم تمض على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى توفى الطفل الذى قدم الخبز للمسيح(٥١) .

وكلف قس فاسق بإحدى النساء ، فلما عجز عن استمالتها إليه احتفظ بجسم المسيح الطاهر فى فمه بعد القربان ، لعله إذا قبلها والجسم فى فمه استجابت إلى رغبته بقوة القربان المقدس . . . ولكنه لما أراد أن يخرج من الكنيسة خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى اصطدم رأسه بسقفها » . فدفن الخبز المقدس فى أحد أركان الكنيسة ؛ واعترف بعدئذ بما حدث لقس آخر ، فأخرجا الخبز من الأرض فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم(٥٢). واحتفظت إحدى النساء بالخبز المقدس فى فمها وهى فى طريقها من الكنيسة إلى بيتها ، ثم وضعته فى قفير نحل لتقلل بذلك من عدد ما يموت من نحلها ، فما كان من النحل « إلا أن بنى لضيفه العزيز من أحلى ما يخرجه من الشهد معبداً صغيراً بديع الصنع »(٥٣). وملأ البابا جريجورى الأول مؤلفاته بقصص من هذا القبيل . ولعل الناس ، أو المتعلمين منهم ، كانوا يشكون فى هذه القصص ويرون أنها أقاصيص مسلية طريفة وليست أسوأ من القصص العجيبة التى يطرد بها الملوك ورؤساء الجمهوريات الوقت الحاضر السأم عن أنفسهم ويريحون بها عقولهم المجهدة ، ولعل السذج فى العصور الخالية لم يقبلوا أكثر من تبديل نوعها لا مداها ، وإن فى كثير من أقاصيص العصور الوسطى لشواهد على إيمان أهل تلك العصور إيماناً يحدث فى النفس أعمق الأثر ؛ وحسبنا أن نذكر منها أنه لما عاد البابا ليو التاسع المحبوب إلى إيطاليا بعد رحلة الإصلاح التى قام بها فى فرنسا وألمانيا انشق له نهر أنين Aniene كما انشق البحر الأحمر لموسى ليستطيع أن يجتازه(٥٤).

وترجع قوة الدين المسيحى إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ؛ وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون آن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التى ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوها توكيدا

يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطئ تارة وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها ، ولعلهم كانوا يرتابون المعرفة ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريماً ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السذاجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للإيمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم وبالدولة . انظر إلى قول فليب أغسطس لملاحيه أثناء عاصفة ثارت فى منتصف الليل : « إنكم تهلكوا لأن آلافا من الرهبان يقومون من فراشهم فى هذه اللحظة ، ولن يلبثوا أن يصلوا من أجلكم(٥٥) » . وكان الناس يعتقدون أنهم تسيطر عليهم قوة أعظم مما تستطيع المعرفة البشرية أن تهبهم ، وكانوا فى العالم المسيحى ، كما كانوا فى العالم الإسلامى ، يسلمون أنفسهم إلى الله ؛ كما كانوا حتى فى دنسهم ، وعفنهم ، وفجورهم يبتهلون إليه أن ينجيهم . لقد كان هذا عصراً ثملا بنشوة الإيمان بالله .

الفصل الثانى

الأسرار المقدسة

كانت القوة الثانية من قوى الكنيسة التى تلى تحديد الدين هى عملها فى أداء الأسرار المقدسة — أى الشعائر التى ترمز إلى منح البركة الإلهية . ويقول القديس أوغسطين فى هذا : « لا يستطيع الناس فى دين من الأديان أن يرتبط بعضهم ببعض إلا إذا اجتمعوا فى نوع من الزمالة عن طريق رموز أو شعائر يرونها رأى العين »(٥٦) . ويكاد اللفظ اللاتينى الذى يعبر عن هذه الأسرار المقدسة وهو لفظ Sacramentum ينطبق فى القرن الرابع الميلادى على كل شىء مقدس — على التعميد ، وعلى الصليب ، والصلاة ؛ وأطلقه أوغسطين فى القرن الخامس على الاحتفال بعيد القيامة ؛ ثم قصره إزدور الأشبيلى Isidore of Seville فى القرن السابع على التعميد وتثبيت العماد ، والقربان المقدس . فلما كان الثانى عشر حددت الأسرار المقدسة بسبعة أسرار : التعميد ، وتثبيت العماد ، والكفارة ، والقربان المقدس ، والزواج ، ورتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الإلهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب — فلم تكن من هذه الأسرار وسميت sacramentals أى المتعلقة بتلك الأسرار تمييزاً لها عن الأسرار الأصيلة .

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل ، وأنموذجه ، وحاميه ، وهذا هو « اسمه المسيحى » أو الخاص . وقبل أن يحل القرن

التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى — طريقة غمر الطفل كله — قد استبدلت بها تدريجا طريقة الرش لأنها أقل خطراً على الصحة من الطريقة الأولى فى الجواء الباردة الشمالية . وكان فى وسع أى قسيس — أو أى مسيحى عند الضرورة — أن يقوم بعملية التعميد ؛ وكانت الطريقة القديمة ، طريقة تأجيل التعميد حتى يكبر الطفل ، قد استبدلت بها طريقة التعميد فى سن الرضاعة ؛ وقد أنشأت بعض الجماعات وبخاصـــة فى إيطاليا كنائس صغرى خاصة لأداء هذه الشعيرة .

وكانت مراسم تثبيت العماد والقربان المقدس تقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة . أما عند أتباع الكنيسة الغربية فقد أجلت سن تثبيت العماد شيئاً فشيئاً إلى السنة السابعة من حياة الطفل حتى يستطيع أن يتعلم المبادىء الأساسية للدين المسيحى . ولم يكن يقوم بهذه العملية إلا أحد الأساقفة ، ويصحبها دعاء إلى الروح القدس أن يدخل فى جسم التعميد ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ولطمه لطمة خفيفة على خده ؛ وبهذه الطريقة الشبيهة بما كان متبعاً فى مراسم الفروسية يثبت المسيحى الصغير فى دينه ، ويكون له تبعاً لذلك كل ما للمسيحى من حقوق وعليه كل ما على المسيحى من واجبات .

وأهم من هذا مراسم الكفارة . فإذا كانت عقائد الكنيسة تلقّن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفّارات . فقد ورد فى الإنجيل (متّى الآية ١٩ من الأصحاح السادس عشر ، والآية ١٨ من الأصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا . وأنه منح الرسل هذه القدرة تفسها قدرة « الربط والحل » . وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن . واستبدلت

بطريقه الاعتراف العلنى التى جرت بها العادة فى أيام المسيحية الأولى طريقة الاعتراف السرى الفردى حتى لا تمس كرامة بعض الكبار ؛ ولكن الاعتراف العلنى بقى عند بعض الطوائف الخارجة على مبادئ الكنيسة . وكانت الكفارة العلنية تفرض أحياناً عند ارتكاب بعض الجرائم الشنيعة كمذبحة سالونيك أو قتل بكت Becket . وقد قرر مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) أن يتكرر الاعتراف والعشاء الربانى كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ومن الدفن دفنة مسيحية . وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمايتهم فوضع « خاتم » على كل توبة بمفردها ؛ ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقس أن يفشى ما اعترف له به . ونشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدد الكفارة القانونية (التى قررتها الكنيسة) لكل مذنب — الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ، أو غيرها من أعمال التقى أو التصدق .

ولهذا « النظام العجيب » ، كما يصف ليبنتز مراسم الكفارة ، كثير من النتائج الطيبة . فهو يريح التائب من آلام وخز الضمير الصامتة المنهكة للأعصاب ؛ وهو يمكن القس من إصلاح أحوال أتباعه الخلقية والجسمية ، وهو يريح بال المذنب بما يبعثه فيه من أمل فى صلاح حاله ، وهو كما يقول ڤلتير المتشكك ، قيد يقلل من ارتكاب الجرائم[٥٨] . ويقول جيته Goethe « لقد كان من الواجب ألا يحرم بنو الإنسان من الاعتراف السمعى »[٥٩] . لكنه لم يخل من بعض النتائج السيئة : فقد كان هذا النظام يستخدم أحياناً لتحقيق أغراض سياسية ، وذلك حين كان القساوسة مثلا يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات[٦٠] . وكان يستخدم أحياناً فى محاكم التفتيش كما حدث حين أمر القديس شارل برميو St. Charles Borromeo (١٥٣٨ — ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة على أيديهم أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفونهم من الملحدين أو ممن تحوم حولهم شبهة الإلحاد[٦١]

وأخطأ بعض السذج فظنوا أن الغفران يبيح لهم أن يعودوا إلى ارتكاب الذنوب . ولما ضعف التحمس الدينى كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب ، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا على التائبين عقوبات مخففة ، كانت فى العادة هى التصدق بالمال لغرض ترتضيه الكنيسة . ونشأت من هذا « التخفيف » صكوك الغفران .

ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم ، بل كان إعفاء جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذى يستحقه الإنسان جزاء له على آثامه الدنيوية ؛ أو من هذا العقاب كله ، وهذا الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة . وكان الغفران الذى يمنح عند الاعتراف يمحو الخطيئة التى لولاه لأدت بكاسبها إلى الجحيم ، ولكنه لم يكن يعفيه من العقاب « الزمنى » المترتب على إثمه . وكانت أقلية صغرى من المسيحيين هى التى تكفر عن ذنوبها فى هذا العالم تكفيراً تاماً ، أما ما بقى من هذا التكفير فيحدث فى المطهر . وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حق التجاوز عن هذا العقاب ؛ وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسما صغيراً عن كنوز البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ؛ وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ؛ وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه إربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادات سُنَّة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق ، أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات ، أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسى ، أو حرب مسيحية . . . واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ، ولكنها فتحت الأبواب

للمطامع البشرية ؛ فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ، ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها الطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وقد نشأ من هذه العروض التى يسميها الإنجليز « غافرات pardoners تنافس شديد جلل بالعار كثيراً من المسيحيين ، فكانوا يتظاهرون بتعظيم بعض الآثار الدينية المزورة ليحملوا الناس على التبرع بالمال ، وكانوا يحتفظون لأنفسهم من هذه الأموال بقسط قليل أو كثير . وبذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوئ ، من ذلك أن مجلس لاتران الرابع أمر المطارنة أن ينبهوا المؤمنين إلى ما هنالك من الآثار الدينية الكاذبة والشهادات المزورة ؛ وحرمت رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران ، وفرضت بعض القيود على حق المطارنة فى إصدارها ، وحثت جميع رجال الدين على أن يراعوا جانب الاعتدال فى تحمسهم لهذه الوسيلة الجديدة . وندد مجلس مينز الدينى فى عام ١٢٦١ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين ، مرنوا على البكاء حين يشاءون ، يساومون على التطهير من الذنوب بأكبر ما يستطيعون الحصول عليه من المال وبأقل ما يقدمونه من الأدعية والصلوات[٦٢] . وشهرت بها مجالس كنسية أخرى مثل هذا التشهير كمجلس ڤين Vtenne (١٣١١) ومجلس راڤنا (١٣١٧)[٦٣] ، لكن هذه المساوئ لم تنقطع .

وكان العشاء الربانى أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد . ذلك أن الكنيسة تمسكت بحرفية العبارة المعزوة إلى المسيح وقت تناول العشاء الأخير ، والقائلة إن الخبز هو جسمه وإن النبيذ دمه . وأهم ما تقوم عليه شعيرة العشاء الربا هو تحول رغيف الخبز وكأس النبيذ إلى جسم المسيح ودمه بقدرة القسيس المعجزة ؛ وكان الغرض الأول من القداس هو أن يسمح للمؤمنين بأن يشتركوا فى « جسم »

الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى « دمه ، ورحه ، وألوهيته » ، وذلك بأكل القربان المقدس ، وشرب النبيذ المقدس . وإذا كان شرب هذا النبيذ يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت فى القرن الثانى عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الربانى بالخبز وحده ؛ ولما أن طالب بعض المحافظين (الذين أخذ عنهم الهوسيون البوهيميون (Hussites of Bohemia) أراءهم فيما بعد أن يتناولوا القربان بصورتيه ليتأكدوا من أنهم حصلوا على دم المسيح وجسمه ، قال لهم علماء الدين إن دم المسيح « ملازم » لجسمه فى الخبز ، وإن جسمه « ملازم » لدمه فى النبيذ[٦٤] . وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكاذبين[٦٥] . وكان يطلب إلى كل مسيحى أن يتناول العشاء الربانى مرة فى العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحى لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ونشأت عقيدة حضور المسيح فى أثناء العشاء الربانى نشأة بطيئة . وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هى التى أذاعها مجلس نيقية فى عام ٧٨٧ . ثم قام راهب بندكتى فرنسى يدعى رتراموس Ratramus فى عام ٨٥٥ وقال إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح ودمه إلا بطريقة روحية لا جسدية . وقام برنجار Berenegar رئيس شمامسة تور حوالى عام ١٠٥٤ وجهر بارتيابه فى تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه ، فكان جزاؤه الحرمان من الدين ، وكذب لافرانك Lafranc رئيس دير بك Bec رداً عليه (١٠٦٣) يقرر فيه العقيدة الدينية الصحيحة قال فيه :

إنا لنعتقد أن المادة الأرضية . . . تستحيل بتأثير القوة السماوية التى لا يستطيع أحد وصفها ... أو إدراك كنهها إلى جوهر جسم المسيح ؛ على حين أن مظهره ، وبعض صفاته الأخرى المتصلة بهذه الحقائق نفسها ، تبقى خافية حتى

ينجو الناس من هول رؤية الأشياء النيئة المخضبة بالدماء ، وحتى ينال المؤمنون الجزاء الكامل لإيمانهم . ومع هذا كله فإن جسم المسيح ذاته يبقى فى الوقت عينه فى السماء ... مصونا كاملا ، لا يمسه أذى أو دنس(٦٦).

وأعلن مجلس لاتران فى عام ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية فى الدين المسيحى ، وأضاف مجلس ترنت Trent إلى هذا القول فى عام ١٢٦٠ أن كل جزىء من الخبز المقدس مهما كسر يحتوى جسم عيسى المسيح كلة ، ودمه ، وروحه ؛ وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر فى الأديان البدائية — وهى أكل الإله .

وقد رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها عقدة دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التى ورثها عن الرسل والتى يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفى آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير ، يستمع القس إلى اعترافات المسيحى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التى تنجيه من النار ، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل . ويدفنه الأحياء من أهله دفنة مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون ، لأن الكنيسة كانت تقول إن الجسم أيضاً يبعث حيا بعد الموت ، وهم يلفونه فى كفنه ، ويضعون قطعة من النقود فى تابوته كما كان يفعل الأقدمون إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون Charon لنقله إلى الدار الآخرة(٦٦) ، ثم يحملونه إلى قبره باحتفال مهيب ينفق فيه الكثير من المال . وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليبكوه وينوحوا عليه ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف لطول مدة الحزن أن قلباً تائباً ، وقسا خادما ، قد ضمنا لهذا الرجل جنة النعيم .

الفصل الثالث

الصـــلاة

الشعائر الدينية فى كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها ، فهى تعلم الإيمان ، وتغذيه ، وتوجده فى كثير من الأحيان ؛ وهى تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه ؛ وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها ، وفنها ؛ وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة مؤتلفة حين تقنعهم بالاشتراك فى شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وأدعية وصلوات واحدة ، ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحدا .

وأقدم الصلوات المسيحية هما الصلاة التى مطلعها « أبانا الذى فى السموات » والتى مطلعها « نؤمن بإله واحد » ، وقبل أن ينتهى القرن الثانى عشر بدأت الصلاة الرقيقة المحببة التى مطلعها « السلام لك يا مريم » تتخذ صيغتها المعروفة . وكانت هناك غير هذه الصلوات أوراد شعرية من الثناء والتضرع . ومن الصلوات فى العصور الوسطى ما يكاد يكون رقى تمكن من يتلوها من الإتيان بالمعجزات ، ومنها ما هو إلحاح متكرر لا يتفق مع تحريم المسيح « للتكرار العديم النفع »[٦٧] . ونشأت عند الرهبان والراهبات تدريجاً ، وعند غير رجال الدين فيما بعد ، عادة استعمال المسبحة ، وهى عادة شرقية جاءبها الصليبيون[٦٨] . ونشر الرهبان الدمنيك هذه العادة ، كما نشر الفرنسكان عادة « طريق الصليب » أو « مواضعه » وهى التى تقضى بأن يتلو المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح ؛ فكان القساوسة ، والرهبان ، والراهبات ، وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية — وهى أدعية ، وقراءات ، ومزامير ، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم

وجمعها ألكوين Alcuin وجريجورى السابع فى كتاب موجز . وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء من مليون كنيسة وبيت متفرقة فى جميع أنحاء الأرض كل يوم وليلة فى فترات بين كل واحدة والتى تليها ثلاث ساعات . وما من شك فى أن نغماتها الموسيقية كان لها أحسن الوقع على آذان أصحاب البيوت التى تستمع إليها كما يقول أوردركس ڤيتالس : Ordericus Vitalis « ما أحلى أناشيد العبادة الإلهية التى تطمئن بها قلوب المؤمنين ، وتدخل عليهم السرور »(٦٩) .

وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التى تتلى فى الكنائس توجّه إلى الله الأب ؛ وكان عدد قليل منها يوجّه إلى الروح القدس ؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجه فى الأغلب الأعم إلى عيسى ومريم ، والقديسين . وكان الناس يخافون الله سبحانه وتعالى ، فقد كان لا يزال يتصف فى عقول العامة بكثير من القسوة التى كانت لليهوه ؛ وكيف يجرؤ الشخص المذنب الساذج أن يوجه صلاته إلى ذلك العرش الرهيب البيعد ؟ إن عيسى لأقرب إليه من ذلك العرش ، ولكنه هو أيضاً إله ، ومن أصعب الأشياء أن يجرؤ الإنسان على مخاطبته وجهاً لوجه بعد أن أنكر نعمه هذا النكران التام . ومن أجل هذا بدا للناس أن من الحكمة أن توجه الأدعية والصلوات إلى أحد القديسين (أو إحدى القديسات) تشهد قوانين الكنيسة بمقامه فى الجنة ، وأن يتوسل إليه بأن يكون وسيلته عند المسيح . وبهذه الطريقة بعثت فى عقول العامة من الماضى الذى لا يبيد أبداً جميع مظاهر الشرك الشعرية الخيالية . وملأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم . وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء . وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتاماً ؛ فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ، وكنيسة ، وحرفة ، ونفس ، وأزمة من أزمات الحياة ، وليّها الشفيع النصير ، كما كان لكل منها إلها فى رومة القديمة . كان لإنجلترا القديس

چورچ ، ولفرنسا القديس دنيس ؛ وكان القديس بارثولميو حامى الدابغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ؛ كان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ؛ وكان القديس كرستفر St. Christopher نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور لأنها صبت زيوتاً عطرة على قدمى المسيح المنقذ . وكان لكل من يحدث له حادث طارئ ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السموات ؛ فكان القديس سبستيان والقديس رتش Roch ذوى قوة وبأس فى أيام الوباء . وكان القديس أپولينيا St.Appolinia الذى كسر الجلاّد فكه يشفى ألم الأسنان ؛ والقديس بليز St. Blaise يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنى St. Corneille يحمى الثيران ، والقديس جول Gall يحمى الدجاج والقديس أنطون يحمى الخنازير ؛ وكان القديس ميدار Médord هو الذى تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القديسين لينزل إليها المطر ، فإذا لم ينزله ألقى عبّاده الذين ينفد صبرهم تمثالا له فى الماء من حين إلى حين ، ولعل هذا كان بمثابة رقية سحرية(٧٠) .

ووضعت الكنيسة تقويماً كنسيا جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين . ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة قبل أن يحلّ القرن العاشر الميلادى . وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين أن التقويم العادى قسم السنة الزراعية أقساما أطلق على كل منها اسم أحد القديسين ؛ فى فرنسا مثلا كان عيد القديس چورچ يوم البذر ، وفى إنجلترا كان عيد القديس ڤالنتين St. Valentine يحدد آخر فصل الشتاء ؛ فإذا حل ذلك اليوم ، على حد قولهم ، تزاوجت الطيور بحماسة فى الغابات ، ووضع الشباب الأزهار على أعتاب النوافذ فى بيوت البنات اللاتى يحبونهن . ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم وإحياء ذكراهم ، أو لأن مكاناً ما قد أصرّ على هذه العبادة على الرغم من

معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس ، والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى ، وتلقت من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطمى العصور المقدسة . واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس « يعبدون صور القديسين ؛ . . . فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما فى الأمر أنهم غيروا أسماءها »[٧١] . وبهذه الطريقة ، على الأقل ، أوجدت إرادة الشعب وحاجته شكل العبادة التى يتعبدها .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم — عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم . وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذه المخلفات ؛ فكانت باسلقا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسدى القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت رومة بفضلهما كعبة الحجاج من جميع أنحاء أوربا . وكانت كنيسة فى سانت أومر St. Omer تدعى أن فيها قطعاً من الصليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، ومن مهده ، وقبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون ، ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شَعر تومس أبكت وقلنسوته ، وقميصه المنسوج من الشعر ، والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سَجَّلت عليها الوصايا العشرَ إصبعُ الله نفسه[٧٢] ، وتحتوى كنيسة أمين Amiens رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية [٧٣] ، ويحتوى دير القديس دنيس جسم ديونيسيوس الأريوبجى Dionysius the Areopagite وتاجه الشوكى . وتدعى واحدة من ثلاث كنائس متفرقة فى فرنسا أن فيها جسد مريم المجدلية كاملا[٧٤] ؛ كما تؤكد خمس كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الحقيقى الوحيد الباقى من ختان المسيح[٧٥] . وتعرض كنيسة إكستر Exter أجزاء من

الشمعة التى استعملها ملاك الله لإضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى(٧٦) . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه(٧٧) . ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه ، والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها(٧٨) . وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكان فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لاتزال حمراء من دمه ، والعصا التى ضُرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . .(٧٩) . وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نهبت القسطنطينية ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تتنقل من كنيسة إلى كنيسة فى بلاد الغرب إلى أيدى من يؤدى فيها أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات . وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل أثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما — كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب عُلبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح . وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع فى جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدرّ على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلا لهذا أن نذكر أن « نقل » عظام تومس أبكت إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتربرى الكبرى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل مايقدر بنحو ٣٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى بنقود هذه الأيام(٨٠) . واجتذب هذا العمل الرابح كثيراً من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ « كشف » مخلفات

جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته[٨١] .

ومما يذكر بالحمد لبعض رجال الدين من غير رجال الأديرة ، وللكثرة الغالبة من الأديرة نفسها ، أنها لم تكن ترضى ، وأنها كثيرا ما كانت تندد ، بهذه الدكاكيرية (الفيتنشية) المسرفة الواسعة الانتشار . ومن الرهبان الذين يسعون إلى العزلة فى عباداتهم من لم يكونوا يرضون عن المعجزات التى تفعلها مخلفات أديرتهم . من ذلك أن رئيس جرامونت Grammont توسل إلى مخلفات القديس استيفن أن تمتنع عن الإتيان بخوارق العادات ، لأنها تغرى الجموع الصاخبة بالتجمع ؛ ثم هدد القديس بقوله : « وإلا ألقينا عظامك فى النهر »[٨٢] . ولم تكن الكنيسة هى التى تزعمت حركة خلق الأقاصيص الخرافية عن معجزات المخلفات أو مضاعفة عددها ، بل الشعوب هى التى فعلت هذا ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الجماهير من تصديق ما يذاع من تلك الأقاصيص[٨٣] . مثال ذلك أن مرسوما إمبراطورياً لعله صدر بناء على طلب الكنيسة حرّم على الناس « حمل » مخلفات القديسين « أو بيعها » وأن القديس أوغسطين شكا من المنافقين الذين يلبسون مسوح الرهبان » والذين « يتجرون فى أجسام الشهداء ، إذا كانوا شهداء بحق » ؛ وقد أعاد چستنيان نشر هذا المرسوم[٨٤] . وكتب الأب جيبرت النوجنتى Guibert of Nogent حوالى عام ١١١٩ رسالة فى مخلفات القديسين ينادى فيها بوضع حد لجنون المخلفات ، ويقول إن الكثير من هذه الآثار « لأولياء اشتهروا فى سجلات لا قيمة لها » ، وإن بعض « رؤساء الأديرة أغوتهم كثرة ما يحمل إليهم من الهدايا ، فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة » ، « وثمة نساء عجائز ونساء ساقطات كثيرات يتغنين بالأقاصيص الكاذبة عن القديسين الشفعاء وهنّ يعملن على أنوالهن . . . فإذا ما فقد إنسان أقوالهن هاجمته . . . بلقاطاتهن » . ويقول إنه قلما أوتى أحد من رجال الدين

الجرأة أو الشجاعة على الاحتجاج ، ويعترف بأنه هو نفسه قد سكت حين رأى تجار المخلفات يعرضون على المؤمنين المصدقين « بعض ذلك الخبز عينه الذى مضغه السيد المسيح بأسنانه نفسها » ؛ ذلك « أنى لو جادلت المجانين لحقّ علىّ القول بأنى مجنون »[٨٥] . ويضيف إلى ذلك أن فى عدد من الكنائس زعوساً كاملة ليوحنا المعمدان ، ويعجب مما كان لهذا القديس من رءوس كثيرة لا يمكن أن يقطعها قاطع[٨٦] . وجرم البابا اسكندر الثالث (١١٧٩) على الأديرة أن تطوف بما عندها من المختلفات لجمع التبرعات ؛ كما حرّم مجلس لاتران المنعقد فى عام ١٢١٥ عرض المخلفات فى خارج الأضرحة[٨٧] ؛ ونددّ مجلس ليون الثانى (١٢٧٤) بـ « الحط من قدر » المخلفات والصور[٨٨] .

ويمكن القول بوجه عام إن ما قامت به الكنيسة لم يكن هو تشجيع الخرافات بل كان أكبر نصيب لها فى هذه الناحية هو أنها ورثتها من خيال الناس أو من تقاليد عالم البحر المتوسط . وكان الإيمان بما لبعض المخلفات ، والطلاسم ، والتمائم ، والرقى ، من قدرة على الإتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة . وبقيت أشكال قديمة من عبادة عضو التذكير زمناً طويلا فى العصور الوسطى ، ولكن الكنيسة ألغتها شيئاً فشيئاً[٨٩] . وورثت عبادة الله بوصفه رب الجيوش ، وملك الملوك ، بعض أساليب التقرب إليه وتعظيمه ، ومخاطبته ، من الساميين والرومان ؛ وتذكرنا عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعادة تقريب القرابين المحروقة ؛ أما عادة الرش بالماء المقدس فكانت صورة قديمة من التعاويذ ؛ وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى القدم ؛ وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية . ووجدت الكنيسة أن معتنقى المسيحية من أهل الريف لايزالون يعظمون بعض العيون ، والآبار ، والأشجار ،

والحجارة ؛ فرأت أن من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء ، وأن يستخدمها المسيحيون بدل أن تقضي قضاء مفاجئاً سريعاً على عادات شديدة الارتباط بعواطف الخلق . واتباعاً لهذا دشنت مجموعة من الحجارة فى صورة مائدة فى بلواريه Plouaret على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحللت عبادة شجرة البلوط بأن علقت على الأشجار صور القديسين المسيحيين(٩٠) . وعادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التى لا بد منها لكى تبيح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية ، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران فى منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا(*) ؛ وسمى عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثنى القديم Eostre وهو اسم إلهة الربيع التيوتونية القديمة ، وحل تقويم القديسين المسيحى محل التقويم الرومانى ؛ وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين ، فأضحت إلهة النصر Dea Victovria إلهة إقليم الألب الأدنى هى القديسة ڤكتوار St. Victoire ، كما ولد كاستر وپلكس Castor and Pollux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Cosmas ودميان Damian .

وكان أعظم ما ظفرت به هذه الروح ، روح التكيف المتسامحة ، من نصر هو السمو بعبادة الإلهة الأم الوثنية واستحالتها إلى عبادة مريم أم المسيح . وهنا أيضاً كان الشعب هو البادئ بهذا التسامى . ذلك أن سيريل Cyril كبير أساقفة الإسكندرية وصف ، فى موعظة له شهيرة ألقاها فى إفسس Ephesus عام ٤٣١ ، مريم بكثير من العبارات التى كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها « إلهتهم الكبرى » أرتميس — ديانا Artimis-Diana دلالة على حبهم إياها

(*) ويطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلهة يحتفل به فى يوم الاعتدال الربيعى . (المترجم)

واعتزازهم بها ، ووافق مجلس إفسس فى تلك السنة على أن تلقب مريم « أم الإله » وعلى الرغم من احتجاج نسطوريوس Nestorius . وما لبثت أرق صفات عشتروت ، وسيبيل ، وأرتميس ، وديانا ، وإيزيس أن جُمعت كلها فى عبادة مريم . ثم قررت الكنيسة فى القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء ، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس(٩١) . وأضحت مريم القديسة الشفعية للقسطنطينية وللأسرة الإمبراطورية ، وكانت صورتها تحمل فى مقدمة كل موكب عظيم ، وكانت (ولا تزال) تعلق فى كل كنيسة وبيت فى العالم المسيحى اليونانى . وأكبر الظن أن الصليبيين هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب بعبادة العذراء عبادة قوية بمظاهر ذات جمال وروعة(٩٢) .

ولم تشع الكنيسة نفسها عبادة مريم . نعم إن آباء الكنيسة كانوا قد كرموا مريم وفضلوها عن حواء ؛ ولكن عداءهم للمرأة بوجه عام ، ووصفهم إياها بأنها « الوعاء الضعيف » ، ومصدر كل غواية بارتكاب الإثم ؛ وخوف الرهبان من النساء وفرارهم منهن ، وحملة الوعاظ على مفاتن النساء ونقائصهن — هذا كله لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى عبادة مريم هذه العبادة القوية الشاملة . وكان الشعب وحده هو الذى ابتدع أجمل زهرة فى العالم الروحى أثناء العصور الوسطى وجعل مريم أقرب الأشخاص إلى القلوب فى التاريخ كله . ذلك أن سكان أوربا المستفيقة من رقدتها لم يعودوا يقبلون تلك الصورة الصارمة لإله يعاقب الكثرة الغالبة من خلقه بإلقائهم فى نار جهنم ، فخففوا من تلقاء أنفسهم الأهوال التى يحدثهم عنها علماء الدين بما خلعوه على أم المسيح من صفات الرحمة والحنان ، وكانوا يرون أن فى وسعهم أن يقتربوا من عيسى — وهو لايزال عندهم أسمى وأعدل من أن يتصلوا به مباشرة — عن طريق أمه التى لاترد سائلا ، والتى لا يستطيع ابنها أن يرد لها شفاعة . وحسبنا دليلا على رأى الناس

فى مريم القصة التى يرويها قيصريوس الهستر باخى Caesarius of Heisterbach (١٢٣٠) وهى أن شابا أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة وعدها إياه ، ولكنه لم يفلح فى أن يغريه بإنكار مريم ؛ فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه . ويحدثنا الراهب نفسه عن أخ له سترسى من غير رجال الدين سمعه يناجى المسيح بقوله : « رباه ! إن لم تنقذنى من هذه الغواية فسأ شكوك إلى أمك »[٩٣] . وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى فى صورة من يغار منها ، فيقولون إن شخصاً ملأ السموات بصلاة العذراء « السلام لك يا مريم » فظهر له المسيح ، كما تقول القصة الطريفة ، وأنبه أشد التأنيب وقال له : « إن أمى لتشكر لك كثيراً ما قدمت لها من أدعية وصلوات ، ولكن عليك مع ذلك ألا تغفل عن الصلاة لى أيضاً »[٩٤] . ولقد كانت عدالة المسيح فى حاجة إلى رحمة مريم لتخففها ، كما كانت صرامة يهوه فى حاجة إلى المسيح . والحق أن أم المسيح أصبحت كما وصفها القرآن ، ثالثة الثالوث الجديد ، يشترك كل إنسان فى حبها والثناء عليها ؛ فالعصاة أمثال أيلار ينحنون لها إجلالا وتكريماً ، والهجاءون أمثال روتبوف Rutebeuf ، والمتشككون الصخابون أمثال المدرسيين الجوالين لم يكونوا يجرءون على النطق بكلمة نابية عنها ؛ وكان الفرسان ينذرون أنفسهم لخدمتها ، والمدن تقدم لها مفاتيحها ، والطبقات الوسطى الرأسمالية الناشئة ترى فيها الرمز الطاهر للأمومة والأسرة ؛ والجفاة الغلاظ من رجال النقابات الطائفية — وحتى أبطال الثكنات وميادين القتال الذين لا يتورعون عن النطق بأقبح الألفاظ فيما هو مقدس — يتبارون مع الفتيات القرويات والأمهات الثاكلات فى توجيه صلواتهم إليها ووضع هداياهم تحت قدميها[٩٥] . وكان أقوى أسفار العصور الوسطى عاطفة هو ذلك الورد الذى يعلن فى حماسة متأججة متزايدة مجدها ويطلب معونتها . ولم يكن مكان ما يخلو من صورة لها ، بل لم تخل منها منحنيات

الشوارع وملتقيات الطرق والحقول . ولما أن تمخض القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن أنبل مولد للشعور الدينى فى التاريخ أقبل الفقراء والأغنياء ، والأذلاء والعظماء ، ورجال الدنيا ورجال الدين ، والفنانون ، والصناع ، أقبل هؤلاء جميعاً يجودون بما ادخروه من مال وبما لديهم من حذق ومهارة لتكريمها فى ألف كنيسة وكنيسة سميت كلها إلا القليل منها باسمها أو كان أبهى ما فيها حرماً خاصاً هو ضريحها .

وعلى هذا النحو نشأ دين جديد ، ولعل السبب فى بقاء الكثلكة إلى هذا اليوم هو أنها استوعبت هذا الدين . وصبغ إنجيل لمريم ، لا تعترف به الكنيسة ، ولا يصدقه العقل ، ولكنه يُفتتن به افتتاناً يجلّ عن الوصف ، وضع الشعب ما فيه من القصص وسطرها الرهبان ؛ نذكر منها **القصة الذهبية** التى تقول إن أرملة قدمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها ، فلما أسره العدو أخذت الأرملة تصلى إلى العذراء فى كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها ؛ ومرت على ذلك أسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها ، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعى أمه وأخفته فى بيتها ، وحينئذ فتحت العذراء السجن ، وأطلقت سراح الشاب ، وأمرته أن « بلّغ أمك ، يا بنى أن ترد إلىّ ولدى بعد أن رددت إليها ولدها »[٩٦] . وجميع رئيس دير فرنسى يدعى جولتييه ده كوانسى Gaultier de Coincy أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، نجد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها العذب . وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة ، وعلق اللص ليشنق ، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد فلما تبين الناس أنها تحميه ، أطلق سراحه ؛ وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد عدة سنين تائبة محطمة الروح ، وجدت العذراء — التى لم تغفل هى عن الصلاة إليها فى كل يوم — قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن

إنساناً ما لم يلاحظ غيابها[٩٧] . ولم يكن فى مقدور الكنيسة أن ترتضى هذه القصص كلها ، ولكنها كانت تقيم احتفالات عظيمة فى ذكرى الحوادث البارزة فى حياة مريم — كالبشارة ، والزيارة(*) ، والتطهير (عيد تطهير العذراء ودخول المسيح إلى الهيكل) ، والصعود ؛ ثم خضعت الكنيسة آخر الأمر إلى إلحاح أجيال من غير رجال الدين ومن الرهبان الفرنسسكان فأجازت للمؤمنين أن يعتقدوا ، ثم أمرتهم فى عام ١٨٥٤ أن يعتقدوا ، بالحمل بلا دنس — أى أن مريم قد حَملت مبرءاً من أثر الخطيئة الأولى التى تلطخ ، حسب قول الكنيسة ، كل طفل يولد من رجل وامرأة من عهد آدم وحواء .

واستحالت الكثلكة بفضل عبادة مريم من دين رهبة — لعلها كانت ضرورية فى العصور الوسطى — إلى دين رحمة وحب ؛ وإن نصف ما فى العبادات الكاثوليكية من جمال ، وكثيراً مما فى الفن الكاثوليكى والغناء الكاثوليكى من روعة وجلال ، لمن خلق هذا الإيمان السامى الذى يتجلى فى وفاء امرأة ورقتها ، بل وفى جمال جسمها ورشاقتها . لقد دخلت بنات حوّاء الهيكل وبدلت روحه ؛ وكانت هذه الكثلكة الجديدة من الأسباب التى طهرت الإقطاع فاستحال فروسية ، ورفعت من شأن المرأة إلى حد ما فى عالم من صنع الرجال ؛ وبفضله وهب النحت والتصوير فى العصور الوسطى فن تلك العصور عمقاً ورقة قلما كان اليونان يعرفونهما فى عهدهم . وفى وسع الإنسان أن يعفو عن كثير مما فى دينٍ وفى عصرٍ أوجدا مريم وكنائسها الكبرى .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات قبل أن تلد هذه ابنها يوحنا المعمدان ، وتحتفل الكنيسة بهذه الذكرى فى ٢ يولية من كل عام . (المترجم)

الفصل الرابع

الطقـــوس

لقد كانت الكنيسة حكيمة إذ أفسحت فى فنها ، وترانيمها ، وصلواتها ، مكاناً لعبادة العذراء ؛ ولكنها أصرّت فى العناصر القديمة من عباداتها وطقوسها على النواحى الصارمة الجدية من الدين . من ذلك أنها جرت على السنة التى كان يجرى عليها الأقدمون ، ولعلها رأت فى هذه السنة فائدة للصحة ، فشرعت الصيام فى أوقات معينة ، نهت فيها عن أكل اللحم فى جميع أيام الجمعة ، كما حرمت أكل اللحم ، والبيض ، والجبن ، طوال أيام الصوم الكبير الأربعين ، وأمرت أن يدوم ذلك الصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ؛ وأمرت كذلك ألا يكون فى هذه الفترة زواج ، أو طرب ، أو صيد ، أو محاكمات فى دور القضاء ، أو صلات جنسية بين الرجال والنساء(٩٨) . وكانت هذه نصائح لمن أراد أن يكون مسيحيا كاملا ، وقلما كان أحد يتمسك بها ، أو يرغم على اتباعها ، ولكنها أفادت فى تقوية الإرادة وكبح الشهوات عند خلائق نهمين شهوانيين .

وكانت الصلوات أيضاً مما ورثته الكنيسة عن الأقدمين ، ثم عدلت فصارت أشكالا من التمثيل الدينى ، والموسيقى الدينية والفن الدينى ، رفيعة ، سامية ، مؤثرة فى النفس . وكانت أقدم العناصر فى الصلاة المسيحية هى مزامير العهد القديم وأدعية هيكل أورشليم وعظاته ، وقراءات من العهد الجديد ، وتناول القربان المقدس . وأدى انقسام الكنيسة شرقية وغربية إلى اختلاف فى الشعائر الدينية ، كما أدى عجز البابوات الأولين عن أن يفرضوا إرادتهم كاملة خارج حدود إيطاليا الوسطى إلى وجود خلاف فى الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة

اللاتينية نفسها . من ذلك أن أحد الطقوس الذى استقر فى ميلان انتشر إلى أسبانيا ، وغالة ، وأيرلندة ، وشمالى بريطانيا ، ولم تتغلب عليه الطقوس الرومانية إلا فى عام ٦٦٤ . وأصلح البابا هدريان الأول طقوس الكنيسة فى منشور خاص بعث به شرلمان حوالى آخر القرن الثامن ؛ ولعل عمله هذا كان إتماما لجهود بذلها جريجورى الأول فى هذه السبيل ، ودوّن جويوم دوران Guillaume Durand أهم طقوس الكنيسة الرومانية فى كتابه « عرضه للوظائف الدينية قائم على العقل Rationale divinorum officiorum (١٢٨٦) . وفى وسعنا أن ندرك ما لقيه هذا المؤلف من قبول إذا عرفنا أنه أول ما طبع من الكتب بعد الكتاب المقدس . وكان المحور الذى تدور عليه العبادات المسيحية وأهم شعائرها هو القداس . وكان هذا الاحتفال يعرف فى القرون الأربعة الأولى باسم « الحمد Eucharist » ، وقد بقيت هذه الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وعمادها الأساسى ، ثم اجتمعت حولها فى خلال اثنى عشر قرناً من الزمان مراسيم متتابعة معقدة من الأدعية والترانيم تختلف باختلاف أيام السنة ، وفصولها ، والغرض الذى يقام من أجله هذا القداس أو ذاك ، ودوّنت هـذه المراسم فى كتاب القداس ليسهل على القس الرجوع إليها . وكانت الكنيسة اليونانية تفصل بين الرجال والنساء وقت الاجتماع لإقامة القداس كما كانت الكنيسة اللاتينية تفعل ذلك فى بعض الأحيان . ولم تكن هناك كراسىٌ يجلس عليها المصلون ، بل كانوا يؤدون الصلاة وهم وقوف ، وكانوا فى بعض اللحظات الرهيبة يؤدونها راكعين ؛ ويعفى من الوقوف والركوع الشيوخ والضعفاء ؛ وأقيمت للرهبان والقساوسة الذين يضطرون إلى الوقوف خلال الصلاة الطويلة أفاريز صغيرة فى أمكنة الترتيل لتسند الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وأضحت هذه الرحمات miserieovoliae موضع عناية ناحت الخشب وحذقه . وكان القس الذى يقيم القداس يدخل وعليه (توغا toga) كالتى

يرتديها اليونان والرومان الأقدمون ، يغطيها قميص أبيض طويل all ، وحلة القداس Cbasuble وبطرشيل stole وكلها أثواب زاهية عليها زخارف رمزية ، أكثرها ظهوراً الأحرف IHS وهى أوائل الكلمات Jesos Huiss Soter أى عيسى ابن (الله) المنقذ . وكان القداس نفسه يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع : سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن : « إلى الله الذى يضفى البهجة على شبابى » . ثم يصعد القس المذبح ويقبّله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديس . ويترنم بالدعاء الذى مطلعه كيرى اليسون kyrie eleison (« ارحمنا يا ألله ») وهو بقية يونانية فى القداس اللاتينى . ويتلو بعدئذ دعاء المجد (« المجد لله فى العلا ») والدعاء الأساسى الذى مطلعه « نؤمن بإله واحد » ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى .

Hic est sanguinis meus (*) و Hoc est corpus meum

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة — أى ابن الله — لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله وإحياء لذكرى التضحية على الصليب ، وبديلا من التضحية القديمة بالأحياء . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : « إنا نرفعها إلى الرب » . ويتلو القديس بعدئذ القداس المثلث Triple Sanctus وحَمَل الله Ognus Dei ، وأبانا الذى ؛ ويشترك هو نفسه فى تناول الخبز والخمر المقدسين ، ويقدم العشاء الربانى إلى الحاضرين ، وبعد أن يؤدى عدة صلوات إضافية ينطق بالصيغة الأخيرة وهى : تفرقوا ، حان الفراق Ite missa est . ولعل لفظ القداس الإنجليزية mass مشتق من لفظ missa هذا[٩٩] . ويبقى بعد هذا من القداس فى أشكاله المتأخرة أن يبارك القس المصلين ، وأن تتلى بعض فقرات أخرى من الإنجيل — وهى

(*) ومن هذه الألفاظ اشتق الساخرون « لفظ hevuspocus »

عادة الديباجة الأفلاطونية الجديدة من إنجيل يوحنا . ولا يقام القداس عادة إلا على يد مطران ، وبعد القرن الثانى عشر لم يكن يقام إلا إذا ألقى فيه راهب موعظة .

وكان القداس يُنشد على الدوام فى أول الأمر ، وكان المصلون يشتركون فى إنشاده ؛ ثم قلّ اشتراكهم فيه أثناء القرن الرابع وما بعده ، وأخذ مرتلون مختصون يردون على المنشد(*) . وتعدّ الترانيم التى يتغنى بها فى الصلوات المختلفة بالكنائس من أعظم ما أنتجته العاطفة والفن فى العصور الوسطى روعة وأقواها فى النفس أثراً . ويبدأ التاريخ المعروف للترانيم اللاتينية بهلارى Hilary أسقف پواتييه (المتوفى عام ٣٦٧) . ذلك أنه لما عاد إلى غالة من منفاه فى بلاد الشام جاء معه ببعض الترانيم اليونانية — الشرقية ، وترجمها إلى اللغة اللاتينية ، وأضاف إليها ترانيم أخرى من عنده ، وقد فقدت هذه كلها . ووضع أمبروز Ambrose بداية أخرى فى ميلان ، ولدينا من ترانيمه الطنانة ثمان عشرة ترنيمة كان لحرارتها المكبوتة أعظم الأثر فى نفس أوغسطين . وأكبر الظن أن ترنيمه الشكر والإيمان النبيلة التى مطلعها « الشكر لك يا ألله » والتى كانت تعزى قبل إلى أمبروز قد كسبها نيقيتاس مطران رمسيانا Remisiana فى أواخر القرن الرابع . وربما كانت الترانيم اللاتينية قد أصبحت أرق من الترانيم السابقة إحساسا وأجمل صورة لتأثرها بالشعر العربى الإسلامى والبروڤنسالى(١٠٠) . ومن الترانيم ما يكاد يكون عبارات ركيكة لا تزيد على ألفاظ رنانة ، مقفاة ؛ غير أن ترانيم عهد العصور الوسطى الزاهر — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — أضحت من جوامع الكلم ، محكمة العبارات ، تتخللها القوافى الرخيمة ، وتعبّر عن أفكار طيبة رقيقة ، ترفعها إلى مستوى أعظم الشعر الوجدانى الذى أنتجه الأدب العالمى .

(*) انظر الباب الثالث والثلاثين ففيه تفصيل واف لموسيقى القداس .

وجاء إلى دير القديس ڤكتور الشهير القائم فى خارج باريس حوالى عام ١١٣٠ شاب من بريطانى بفرنسا ، لا نعرف من اسمه أكثر من آدم نزيل دير القديس ڤكتور . وقضى الشاب فى ذلك الدير الستين عاما الباقية من عمره هادئاً راضياً ، وتشرّب بروح هوجو Hugo ورتشرد الصوفيين الذائعى الصيت ، وعبّر عن هذه النزعة الصوفية تعبيراً متواضعاً ، حلواً ، قويا ، ترانيم يقصد بمعظمها أن تتلى بعد مراسم القداس . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألف راهب فرنسسكانى يدعى چكوپون ده تودى Jacopone de Todi (١٢٢٨ ؟ — ١٣٠٦) أعظم ترنيمة فى العصور الوسطى وهى المعروفة باسم « وقفت الأم Sébat mother » . وكان چكوپون هذا محامياً ناجحاً فى تودى القريبة من پروجيا Perugia ، واشتهرت زوجته بصلاحها وجمالها ، وماتت هذه الزوجة إثر حادث سقوط طوار عليها فى أحد الأعياد ؛ فذهب الحزن بعقل چكوپان ، وأخذ يجول على غير هدى فى طرق أمبريا Umbria مردداً بأعلى صوته ذنوبه وأحزانه ، وطلى نفسه بالقار والريش ، وأخذ يمشى على أربع ، وانضم إلى جماعة الفرنسسكان وأنشأ القصيدة التى تحتوى فى إيجاز ما كان فى هذا الوقت من تُقى وحنان :

وقفت الأم كسيرة القلب ،
تزرف الدمع أمام الصليب
وابنها معلق يحتضر ؛
وقد نفذ فى روحها المثقلة بالأحزان ،
وهى تندبه وتتألم من أجله ،
سيف الأسى البتّار .
ألا ما أشد حزنها
تلك الأم التى أنعم الله عليها بابنها الوحيد ،
والتى رماها الزمان بسهامه !

وأخذت وقتئذ تنتحب وتندب سوء حظها ،
وترتجف حين أبصرت عذاب ابنها النبيل .
ومنذا الذى لا يحزن
إذا شاهد أم منقذنا
وقد شجتها الغصة ؟
منذا الذى يستطيع أن يحاجز نفسه عن أن يشاركها أحزانها حين يرى هذه الأم الحنون
تندب مصير ولدها ؟ . . .
أقبلى يا أماه ، يا منبع الحب ،
وأشعرينى آلامك بأكملها
دعينى أشاركك أحزانك ،
واشعلى فى قلبى نار الشوق
وحب المسيح إلهنا ومنقذنا ،
دعينى أفعم قلبه بالسرور !
أيتها الأم المقدسة ، افعلى هذا رحمة بى !
اغرسى ضربات من مات شهيداً
عميقة فى قلبى .
دعينى أقاسى آلام
ابنك الذى أصيب بجرح أليم
وتحمّل الهوان من أجلى !
دعينى أبكِ بحق إلى جانبك ،
وأقض سنى حياتى كلها

آشاركك الحزن على ابنك المصلوب .
ألا ليتنى أستطيع أن أكون معك ،
وأقف بجوار الصليب فى صحبتك ،
راضياً ، مغتبطا ، مرتبطا فى الحزن بك
فليحمنى الصليب ،
ولتنجنى آلام المسيح المنقذة للبشر ،
وليرعنى بلطفه ،
وإذا ما بلى جسمى
فلتنظر روحى فى أمجاد السماء
إليه وجهاً لوجه .

وليس فى الشعر ما يضارع هذه الترانيم المسيحية التى قيلت فى العصور الوسطى إلا قصيدتان إحداهما هى قصيدة عيد القربان Pange Lingue ، والأخرى قصـــيدة « يوم الغضب » الرهيبة التى كتبها تومس السلانوى Thomas of Celono حوالى ١٢٥٠ ، والتى تنشد فى القداس الذى يقام للموتى ؛ وهنا توحى رهبة يوم الحساب بقصيدة لاتقل كآبة وكمالا عن أى حلم من أحلام دانتى المعذّبة(١٠١) .

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها ذات الأثر الشديد فى النفس والمشتملة على الأدعية والترانيم والقداس — أضافت إلى هذه الطقوس ما يحدث فى الأعياد الدينية من حفلات ومواكب . وأخذ عيد الميلاد فى البلدان الشمالية المراسم المفرحة للطبقة التى كان التيوتون الوثنيون يقيمونها احتفالا بانتصار الشمس وقت الانقلاب الشتائى على الظلمة المقبلة ؛ ومن هذا نشأت كُتَل عيد الميلاد التى تحرق فى بيوت الألمان ، وأهل فرنسا الشمالية ، والإنجليز ، وأهل اسكنديناوة ، كما

نشأت شجرة عيد الميلاد التى تثقل بالهدايا ، والولائم المرحة التى تتخم البطون القوية حتى الليلة الثانية عشرة بعد هذا العيد ، وكان ثمة أعياد واحتفالات أخرى يخطئها الحصر — عيد الغطاس ، وعيد الختان ، وحد السعف ، وعيد القيامة ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة . . . وكانت هذه الأعياد وأيام الآحاد كلها إلى درجة أقل منها قليلا ، أحداثاً مثيرة فى حياة رجل العصور الوسطى . وكان يستعد لاستقبال عيد القيامة بالاعتراف بما يهمه أن يتذكره من ذنوبه ، ويستحم ، ويحلق لحيته أو يقص شعره ، ويلبس خير ملابسه وأكثرها مضايقة له ، ويَطْعَمُ الله فى العشاء الربانى ؛ ويحس أعمق الإحساس بالمسرحية المسيحية الخطيرة الشأن التى قُدّر عليه أن يكون جزءاً منها . وكانت حوادث آلام المسيح تمثل فى كثير من المدن فى الثلاثة الأيام الأخيرة من أسبوع الآلام ، تتضمنها مسرحية دينية ذات حوار وأغان بسيطة ؛ كذلك كانت عدة أوقات أخرى من السنة الكنسية تمتاز بأمثال هذه « الطقوس الخفية » . وحدث فى عام ١٢٤٠ أن أبلغت يوليانا Juliana رئيسة دير قريب من لييج Liége قس القرية التى تقيم فيها أن رؤيا سماوية قد نبهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه فى العشاء الربانى وذلك بإقامة عيد فخم رهيب ، وأقر البابا إربان الرابع هذا الاحتفال فى عام ١٢٦٢ وعهد إلى تومس أكوناس أن يضع له « صلاة مؤلفة من ترانيم وأدعية تناسبه » . وقام الفيلسوف بهذه المهمة على خير وجه ، وفى عام ١٣١١ ثبت أخيراً عيد القربان واحتفل به فى أول يوم خميس بعد عيد العنصرة بأفخم موكب من مواكب السَّنَة المسيحية بأجمعها . وكانت هذه الحفلات تجتذب إليها جموعا لايحصى عددها ، وتبعث البهجة والمرح فى قلوب الكثيرين ممن يشتركون فيها ؛ وهى التى مهدت السبيل للمسرحية غير الدينية فى العصور الوسطى ، وساعدت على قيام مواكب النقابات الطائفية واحتفالاتها ، وألعاب البهلوانية والاحتفال بتنصيب الفرسان ، وتتويج الملوك ، وشغل ماهنالك من فراغ

فى حياة الأهلين الذين لا يميلون بفطرتهم إلى السلم والنظام بالحركات المنبعثة عن التقى ، والصلاح ، والمناظر التى تسمو بأرواحهم إلى أعلى الدرجات . ولم تكن الكنيسة تقيم تعاليمها الأخلاقية ، التى تصل إليها عن طريق العقائد الدينية على الجدل المؤدى إلى الإقناع ، بل كانت تلجأ فى الوصول إلى هذا الغرض إلى الحواس عن طريق التمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والقصص ، والشعر ؛ ولا يسعنا إلا أن نعترف أن الالتجاء إلى العواطف على هذا النحو أكثر نجاحا وأهدى إلى الغرض — شراً كان أو خيراً — من الالتجاء إلى العقل المتقلب ذى النزعة الفردية . ولقد أوجدت الكنيسة بالتجائها إلى هذا فن العصور الوسطى .

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج . فقد كان الرجال والنساء يحجون ليكفروا عن ذنب أو يوفوا بنذر ، أو يطلبوا شفاء من داء بإحدى المعجزات ، أو ينالوا غفرانا ؛ وما من شك فى أنهم كانوا يسعون ، كما يسعى السياح فى هذه الأيام ، ليشاهدوا بلدانا جديدة ومناظر جديدة ، وليقوموا فى طريقهم بمغامرات تطرد ما يلقونه فى حياتهم الضيقة الرتيبة من ملل وسآمة . وكان هناك عشرة آلاف مكان معترف بجواز الحج إليها فى أواخر القرن الثالث عشر . وكان أكثر الحجاج شجاعة يؤمون فلسطين النائية ، ومنهم الحفاة ، ومنهم من لا يلبسون إلا قميصا واحداً ؛ وكانوا يحملون فى الصلاة ، صليبا ، وعكازا ، وكيسا من النقود تناولوها كلها من يد قسيس . وحدث فى عام ١٠٥٤ أن سار ليدبيرت Leidbert أسقف كمبريه على رأس ثلاثة آلاف حاج إلى بيت المقدس ، وفى عام ١٠٦٤ سار كبير أساقفة كولونى ، ومينز ، وأساقفة اسپاير ، وبامبرج ، وأوترخت إلى بيت المقدس أيضا ، ومن ورائهم عشرة آلاف مسيحى هلك منهم ثلاثة آلاف فى الطريق ، ولم يعد منهم إلى أوطانهم سالمين إلا ألفان . وعبر حجاج آخرون جبال البرانس ، أو جازفوا بحياتهم فى المحيط الأطلنطى

ليزوروا الأماكن التى يقال إن بها عظام الرسول يعقوب بقمبستيلا Compostela من أعمال أسبانيا . وفى إنجلترا كان الإنجليز يحجون إلى قبر القديس كثبرت Cuthbert فى درهام ، وإلى قبر ادورد المعترف Edward the Confessor فى وستمنستر ، أو إلى قبر القديس إدمند St, Edmund فى بيورى Bury ، أو إلى الكنيسة التى أنشأها كما يقولون يوسف الأرماثيائى Joseph of Arematheа فى جلاستنبرى Glastonbury وكان أهم من هذه الأماكن كلها فى نظر الإنجليز ضريح توماس أبكت فى كنتربرى . وكانت فرنسا تجتذب الحجاج إلى قبر القديس مارتن فى ثور وإلى نتردام فى تشارتر ، ونتردام فى له — پوى — أن — ڤلاى Le-puyen-Velay وفى إيطاليا كنيسة القديس فرانسس وعظامه فى أسسى Assisi ، وفيها أيضاً سانتا ، كاسا Santa Casa أو البيت المقدس فى لوريتو Loreto ويعتقد المتقون أنه هو البيت الذى سكنت فيه مريم مع عيسى فى الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك آخر الصليبيين منها ، وطارت به فى الهواء ثم أنزلته فى دلماشيا (١٢٩١) ، ثم طارت فوق البحر الأدرياوى إلى غابات أنكونا (اللورتوم Louretum) التى اشتق منها اسم هذه القرية المكرمة .

وآخر ما نذكره فى هذا المقام أن كل طرق العالم المسيحى كله كانت تؤدى بالحجاج إلى رومة ، ليشاهدوا قبرى بطرس وبولس ، ولينالوا الغفران بزيارة المنازل المقدسة ، أو الكنائس القائمة فى تلك المدينة ، أو للاحتفال بعيد من الأعياد ، أو ذكرى سارة فى التاريخ المسيحى . وحدث فى عام ١٢٩٩ أن أعلن البابا بنيفاس الثامن أن سيقام عيد كبير فى عام ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد فى كنيسة القديس بطرس فى ذلك العام . ويقال إن عدد من دخل أبواب رومة من الغرباء فى كل يوم من أيام هذه الشهور الاثنى عشر لم يكن يقل عن مائتى ألف ، وإن مليونى زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا

ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ؛ وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حدا شغل قسيسين ظلا يعملان بالمجارف ليلا ونهارا لجمع النقود(١٠٢). وكانت دلائل السياح ترشد الحجاج إلى الطرق التى يسلكونها ، والأماكن التى لا بد لهم أن يزوروها فى طريقهم أو حين يحطون رحالهم . وفى وسعنا أن نرسم لأنفسنا صورة حقيقية من فرحة الحجاج المتعبين ، وقد كساهم العثير ، وحين تقع أبصارهم آخر الأمر على المدينة الخالدة ، وحين ترتفع عقيرتهم بأغنية الفرحة والحمد التى يتلوها الحجاج : « أى رومة النبيلة ، يا ملكة هـــذا العالم كلة ، ويا خير المدائن كلها ، يا ذات اللون الأحمر الياقوتى الذى كستك به دماء الشهداء الوردية ، ولكنك كالسوسن النقى بمن فيك من العذارى . إليك نهدى تحياتنا خلال السنين وندعو لك بالخير ، ونحييك من خلال القرون ! » .

وقد أضافت الكنيسة إلى الخدمات الدينية المختلفة خدمات أخرى اجتماعية ؛ فقد أشعرت الناس بما للعمل من كرامة ، ومارس رهبانها العمل فى الزراعة والصناعة . ووافقت على أن ينتظم العمال فى نقابات طائفية ، ونظمت نقابات طائفية دينية للإشراف على أعمال الصدقات(١٠٣) . وكانت كل كنيسة حرماً مقدساً من حق كل من يُطارَد أن يلجأ إليها ليجد فيها مُقاماً له حتى تهدأ سورة من يطارده ويخضع للإجراءات القانونية ، وكان إخراج هؤلاء الرجال من هذا الحرم الأمين تدنيساً له يعاقب من يرتكبه بالطرد من حظيرة الدين . وكانت الكنيسة الصغيرة والكبيرة المركز الاجتماعى فى القرية أو المدينة . وكان حرمها المقدس فى بعض الأحيان أو الكنيسة نفسها يستخدمان برضاء القساوسة لخزن الحبوب أو الدريس أو النبيذ ، كما كانا يستخدمان أيضاً فى طحن الحبوب أو عصر الجعة(١٠٤) . وفى الكنيسة عُمِّد معظم أهل القرية ، وعندها سوف تدفن كثرتهم . وفيها يجتمع الكبار فى أيام الأحد ليتجاذبوا أطراف الحديث أو يتناقشوا فى شؤون القرية ، ويجتمع الشـــبان والشابات ليرى بعضهم بعضاً .

وعندها يجتمع المتسولون وتوزّع الكنيسة صدقاتها ، وفيها يجتمع كل ما تعرفه القرية من فن إلا القليل منه ليجمل بيت الله ، ويبتهج ألف فقير بما يشهد من مجد المعبد المقدس الذى شاده الناس بأموالهم وأيديهم ، والذى بعدّونه ملكا لهم ، وموطنهم الجماعى والروحى . وكانت الأجراس المعلقة فى برج الكنيسة تدق ساعات اليوم ، أو تدعو المؤمنين إلى الصلاة والدعاء ، وكانت موسيقى هذه الأجراس أحلى من كل ما عداها إذا استثنينا الترانيم التى تؤلف بين الأصوات والقلوب وتوحدها ، أو تبعث الحماسة فى قلوب ذوى الإيمان الفاتر بتسابيح القداس . وقد ارتفعت أبراج الكنائس ، المستدق منها وغير المستدق ، فى أقطار الأرض من نفجورود إلى فارس، ومن بيت المقدس إلى هبريدة تشق الفضاء لأن الناس لا يستطيعون الحياة بلا أمل ولا يرضون بالموت .

الفصل الخامس

القانون الكنسى

نمت إلى جانب الطقوس الدينية المعقدة الرائعة طائفة من الشرائع الكهنوتية أكثر منها تعقيداً ، تنظم أعمال الكنيسة وقراراتها . وكانت الكنيسة ذلك الوقت تسيطر على دولة أعظم رقعة وأكثر تبايناً من أية إمبراطورية . وقد نشأ القانون الكنسى شيئاً فشيئاً من العادات الدينية القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين رومة أو القبائل المتبربرة ، وقرارات مجالس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم . وعدّلت أجزاء من قانون جستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكى يتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا . وأعدت مجموعات من الشرائع الدينية فى البلاد الغربيـــة فى القرنين السادس والثامن ، كما أعد أباطرة بيزنطية من حين إلى حين مجموعات مثلها فى بلاد الشرق . وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان Gratian حوالى عام ١١٤٨ .

وكان جراتيان هذا من رهبان بولونيا ، ولذلك لا يبعد أن يكون قد درس على إرنيريوس Irnerius فى جامعة تلك المدينة . وسواء كان هذا أولم يكن فإن الذى لا شك فيه أن الموجز الذى أصدره يدل على علم غزير بالقانون الرومانى وفلسفة العصور الوسطى . وقد سمى كتابه **التوفيق بين القواعد المتعارضة** Concordia discordantium Canonum ، ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة **اسم القرارات** . وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين ، وما كان لها من عادات ، وما أصدرته المجالس الدينية والبابوات حتى عام ١١٣٩ من قرارات

خاصة بالعقائد الدينية ، والطقوس ، والأنظمة ، والقواعد الإدارية ، والمحافظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنسية ، وما لها من سوابق ، وتنظيم حياة الرهبنة ، وعقود الزواج وقواعد الوصية . وربما كانت طريقة العرض قد أخذت عن كتاب أبلار . Sic et non « هكذا وإلا فلا »

وما من شك فى أنها كان لها بعض الأثر فى الطريقة المدرسية بعد جراتيان Gratian ، فهى تبدأ بقضية مقررة ثم تنقل أقوالا أو سوابق تعارضها ، وتحاول أن تزيل هذه الاعتراضات وتضيف بعض الشروح والتعليقات . ولم تتخذ الكنيسة فى العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً نهائيا ، ولكنه أصبح فى الفترة التى كان قائما فيها نصا لا غنى عنه ، ويوشك أن يكون نصا مقدسا . وأضاف إليه جريجورى التاسع (١٢٣٤) وبنيفاس الثامن (١٢٩٤) وكلمنت الخامس (١٣١٣) ملاحق من عندهم ، وقد نشرت هذه الملاحق وبعض إضافات أقل منها شأناً مع كتاب جراتيان فى عام ١٥٨٢ باسم « مجموعة من القوانين الكنسية مقابلة لمجموعة قوانين چستنيان المدنية »(*) .

والحق أن الميدان الذى يشغله القانون الكنسى كان أوسع من الميدان الذى يشغله أى قانون مدنى معاصر له ، فهو لا يقتصر على البحث فى تكوين الكنيسة ، وعقائدها ، وأعمالها ، بل يبحث فوق ذلك فى القواعد التى تعامل بمقتضاها غير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ؛ والطرق التى تستخدمها عند النظر فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدين ؛ وفى تنظيم الحروب الصليبية ؛ وفى قوانين الزواج وشرعية الأبناء ، والمهور ، والزنى ، والطلاق ، والوصايا ، والدفن وأحوال الأرامل ، واليتامى ؛ وفى قوانين الإيمان ، ونقضها ، وانتهاك حرمة المعابد ، والتجديف والمتاجرة بالدين والرتب الكهنوتية ، والسب ،

(*) وفى ٢٠ مايو ١٩١٨ أصبحت مجموعة القوانين الكنسية المعدلة هى قانون الكنيسة الرسمى .

والربا ، والأثمان العادلة ؛ وفيه قواعد لتنظيم المدارس والجامعات ، وهدنة الله وغيرها من الوسائل المقيدة للحرب والمنظمة للسلم ؛ وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ؛ وتوقيع العقوبات الكنسية ؛ والعلاقة القائمة بين المحاكم المدنية والمحاكم الدينية ، وبين الدولة والكنيسة . وكانت الكنيسة ترى أن الواجب المفروض على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا لهـذه المجموعة الضخمة من القوانين ، وأن من حقها هى أن توقع على كل من يخرج على أى شىء منها مختلف العقوبات البدنية أو الروحية ، لايستثنى من ذلك إلا شىء واحد وهو أنه لا يجوز لأية محكمة كنسية أن تنطق بـ « حكم الدم » — أى أن تحكم بالإعدام على شخص ما .

وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش(*) تعتمد على وسائل الإرهاب الروحى ؛ فكان الحرمان الأصغر Minor excommunication يمنع المسيحى من الاشتراك فى العشاء الربانى وفى طقوس الكنيسة ؛ وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة ؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم فى نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر Maior excommunication (وهو الحرمان الوحيد الذى تستخدمه الكنيسة فى هذه الأيام) فلا يصدره إلا مجلس دينى أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة ، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة . فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانونى أو روحى بالمجتمع المسيحى : فلا يستطيع أن يقاضى ، أو يرث ، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية ، ولكنه يجوز لغيره أن يقاضيه ، ويحرم على أى مسيحى أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . ولما أن صدر قرار الحرمان على ربرت ملك

(*) أو دواوين التحقيق كما يسميها بعضهم

فرنسا (٩٩٨) لزواجه من ابنة عمه ، تركه جميع رجال حاشيته وجميع خدمه تقريباً ؛ وكان الخادمان اللذان بقيا عنده يلقيان فى النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته ، حتى لا تدنسهما هذه البقايا . وكانت الكنيسة فى الحالات القصوى تضيف إلى الحرمان عقوبة اللعنة Anathema ، وهى عقوبة ذكر فيها بعناية وبأقوى عبارة ، وبكل ما تحتويه العبارات القانونية من لغو ، كل ما يتصل بهذه العقوبة . وكان آخر ملجأ للكنيسة هو حق البابا فى أن يصدر قرار تحريم (Interdict) على أية بقعة من العالم المسيحى — أى أن يمنع إلى أجل جميع الخدمات الدينية أو الكثرة الغالبة منها . وإذ كان الناس فى تلك الأيام يشعرون بحاجتهم إلى العشاء الربانى ، ويخشون أن توافيهم المنية قبل أن يعفى عن خطاياهم ، فقد كان المحروم يضطر عاجلا أو آجلا إلى مصالحة الكنيسة . وقد صدرت قرارات بالحرمان من هذا النوع على فرنسا فى عام ٩٩٨ ، وعلى ألمانيا فى عام ١١٠٢ ، وعلى إنجلترا فى عام ١٢٠٨ ، وعلى رومة نفسها فى عام ١١٥٥ .

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً فى ضعف أثرهما فى القرن الحادى عشر[١٠٥] . فقد كان البابوات يصدرون بين الفينة والفينة قرارات لأغراض سياسية ؛ كما حدث حين هدد إنوسنت الثالث مدينة بيزا بإصدار قرار التحريم عليها إذا لم تنضم إلى الجامعة التسكانية[١٠٦] . وبلغت قرارات الحرمان بالجملة — للغش فى أموال الزكاة التى كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين — من الكثرة أن أضحت أقسام كثيرة من المجتمع المسيحى محرومة كلها فى وقت واحد ، ومنها ما لم تكن تعرف أنها محرومة ، كما أن منها ما أغفل قرار الحرمان أو سخر منه[١٠٧] ولم يعبأ به . من ذلك أن قرار الحرمان بالجملة صدر على ميلان وبولونيا وفلورنس ثلاث مرات فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وظلت ميلان اثنين وعشرين عاماً تتجاهل القرار الثالث . ويحدثنا الأسقف جويوم له مير

Guillaume le Maire فى عام ١٣٩١ عن هذه القرارات فيقول : « لقد رأيت بعينى فى بعض الأحيان أربعمائة محروم فى أسقفية واحدة بل رأيت سبعمائة منهم . . .(*) يزدرون سلطة المفاتيح ويوجهون ألفاظ التجديف والسباب للكنيسة ورجالها(١٠٨) » ولم يعبأ فليب أغسطس وفليب الجميل بقرارات الحرمان التى صدرت عليهما .

وكان ما يحدث آناً بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسى على غير رجال الدين فى أوربا . وكانت الكنيسة قد أخضعت لسلطانها طائفة كبيرة من شئون الحياة البشرية حين تضعضعت السلطات المدنية فى الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحى ؛ فلما أن قويت الحكومة المدنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر استرد القانون المدنى من القانون الكنسى طائفة بعد طائفة من الشئون البشرية . نعم إن الكنيسة قد نالت مكاسب جديدة فى التعيين فى الوظائف الدينية ، أما فى معظم الميادين الأخرى فقد أخذ سلطانها يضمحل فى شئون التعليم ، والزواج ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والحرب . فقد أعلنت الدول التى نمت وترعرعت فى ظل النظام الاجتماعى الذى أوجدته هى والذى أجاز لها أن تنمو وتترعرع ، أعلنت هذه الدول أنها شبت عن الطوق وبدأت تلك العملية الطويلة — عملية التحرر من السلطة الدينية — التى بلغت غايتها فى هذه الأيام . ولكن جهود واضعى القانون الكنسى لم تذهب هباء ، كما لا تذهب هباء معظم الجهود المبدعة الخلاقة فى هذا العالم ، فهى التى أعدت ودربت أعظم من أخرجتهم من الحكام :

(*) لعله يريد سلطة رجال الدين الذين كانت بيدهم مفاتيح السماء فى ظنهم . (المترجم)

وأسهمت فى نقل القانون الرومانى إلى العالم الحديث ، وأيدت الحقوق القانونية للأرامل والأطفال ، ووضعت فى القانون المدنى المعمول به فى أوربا الغربية المبدأ الذى يجعل للزوجة فى حياتها نصيبا من مال زوجها(١٠٩) ، وكان له نصيب فى صياغة الفلسفة المدرسية ووضع مصطلحاتها . وملاك القول أن الشريعة الكنسية كانت من أعظم الأعمال التى تمخض عنها العقل البشرى فى العصور الوسطى .

obeikandl.com

الفصل السادس

رجال الدين

كان الناس فى حديثهم العادى فى العصور الوسطى يقسمون الخلق طبقتين : طبقة رجال الدين وطبقة « رجال الدنيا » وكان الراهب من رجال الدين وكانت الراهبة من نسائه ، ومن الرهبان من كانوا أيضاً قسيسين وهؤلاء يكونون « رجال الدين النظاميين » أى رجال الدين الذى يتبعون قانون الأديرة (regula) ؛ أما غيرهم من رجال الدين فكانوا يسمون « دنيويين » أى يعيشون فى الدنيا » (saeculum) ، وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز من غيرها بحلق قمة الرأس وبأن يلبس أفرادها مئزراً طويلا ذا لون واحد أيا كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر ، تضمه أزرار بطوله كله من الرأس إلى القدمين . ولم يكن لفظ رجال الدين يطلق على من كان منهم فى « الدرجات الصغرى » فحسب — أى بوابى الكنائس ، وقارئى الصلوات ، وقارئى الرُّقَى ، والسدنة — بل كان يطلق كذلك على جميع طلبة الدين ومدرسيه فى الجامعات ، وعلى كل من حلقوا قمة رءوسهم — أى دخلوا فى زمرة رجال الدين — وهم طلاب ثم أصبحوا فيما بعد أطباء أو محامين ، أو فنانين ، أو مؤلفين ، أو اشتغلوا محاسبين أو مساعدين لرجال الأدب . وهذا هو السبب الذى من أجله ضاق معنى لفظى Clerical ، Clerk فصارا «كتابياً» و« كاتباً » . وكان يسمح لرجال الدين من غير الطبقات العليا أن يتزوجوا وأن يشتغلوا بأية مهنة محترمة ، ولم يكونوا يلزمون بأن يظلوا مستمسكين بعادة حلق قمم رؤوسهم .

أما الطبقات الثلاث « الكبرى » أو « الطبقات المقدسة » — أتباع الشمامسة — والشمامسة — والقساوسة — فلم يكن يجوز لمن انضم إليها أن يخرج

منها ؛ وقد أغلق أمام أفرادها بوجه عام باب الزواج بعد القرن الحادى عشر ، ولكن لدينا شواهد تدل على أن بعض القساوسة اللاتين بعد أيام جريجورى السابع كانوا يتخذون لهم أزواجاً أو خليلات(١١٠) ، غير أن هذه الحالات أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى كانت من الحالات الشاذة النادرة(*) ، وكان على قس الأسقفية أن يقنع بالمتع الروحية . وإذ كانت حدود الأسقفية تتفق فى العادة مع حدود الضيعة أو القرية ، فإن مالك الضيعة كان فى أغلب الأحوال هو الذى يعين القس(١١١) بالاشتراك مع الأسقف . وقلما كان هذا القس ممن نالوا قسطاً موفوراً من التعليم ؛ وسبب ذلك أن التعليم الجامعى كان وقتئذ كبير النفقة ، وأن الكتب كانت نادرة ؛ ولهذا كان يكفيه أن يعرف كيف يقرأ الصلوات والقداس ، ويقوم بتقديم العشاء الربانى وتنظيم شئون العبادة والصدقات فى الأسقفية . ولم يكن فى كثير من الحالات أكثر من مساعد أو نائب يستأجره قس أكبر منه ليؤدى الخدمات الدينية فى الأسقفية نظير ربع دخله من معاشه . وكان فى مقدور القس الكبير بهذه الطريقة أن يكون له معاش من أربع

(*) لقد خلقت العزوبة العامة بين الرهبان والقساوسة والراهبات بعد عام ١٢١٥ مشكلة من المشاكل الجنسية . ولربما كانت أوربا قد قاست بعض الخسارة فى القوة الحيوية من جراء امتناع عدد كبير من الأشخاص الأصحاء عن الاضطلاع بواجب الأبوة والأمومة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد تورث القدرة العالية على التناسل . وأقرب من هذا البحث إلى الناحية العلمية أثر التفاوت فى العدد بين الرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى الطبقات الدينية والناشئ من تحريم الزواج على الرهبان والقسيسين . ولما زادت نسبة الوفيات بين الرجال على مثلها بين النساء بسبب الأسفار للتجارة وغيرها ، وبسبب الحروب العادية والصليبية ، والنزاع بين الأفراد والجماعات ، وغير هذه من الأخطار ، بقيت نسبة كبيرة من النساء عانسات أو لجأن إلى الاختلاط الجنسى غير المشروع . وكانت الكنيسة ترحب بمن يردن أن يترهبن من النساء إذا استوفين شروط الترهب ، ولكن عدد الرهبان والقساوسة مجتمعين كان يفوق عدد الراهبات كثيرا . ومن أجل هذا فإن بنات الأشراف اللاتى لا يتزوجن كثيراً ما كن يوهبن إلى الأديرة أما بنات غير هـذه الطبقة فكن يلجأن إلى العمل على عجلة الغزل ، أو يمشين مع بعض أقاربهن ، أو يحيين فى جو من العار والريبة ليشبعن مطالب رجال من ذوى المكانة .

أبرشيات أو خمس ، أما قس الأبرشية فكان يحيا حياة الفقر والمذلة[١١٢]، يعتصر دخله من « رسوم المذبح » أو التعميد ، أو عقود الزواج ، أو الدفن ، أو قراءة القداس للموتى . وكان فى بعض الأحيان ينحاز إلى جانب الفقراء فى حرب الطبقات ، كما فعل جون بول John Ball[١١٣] ؛ ولم يكن مستواه الخلقى يضارع مستوى قس هذه الأيام الذى سما إلى ما سما إليه بفضل المنافسة الدينية ، ولكنه كان بوجه عام يقوم بعمله صابراً حريصاً على إطاعة نداء الضمير وواجب الشفقة والرحمة . فكان يعود المرضى ، ويواسى المحرومين ، ويعلم الشباب ، ويلوك صلواته ، ويبث فى الأهلين الغلاظ الشداد شيئاً من التحضر والخلق الطيب . ويقول أقسى ناقدى هذه الطائفة إن كثيرين من قساوسة الأبرشيات « كانوا ممن لا غنى عنهم فى هذا العالم »[١١٤]، وقال عنهم لكى Lecky المتحرر من قيود الدين : « ليس ثمة طائفة غيرهم أظهرت ما أظهروه هم من غيرة جامعة مجردة من الانهماك فى متاع الدنيا ، لا يثنيها عن هدفها مصالحها الشخصية ، يضحى أفرادها فى سبيل الواجب المفروض عليهم أعز ما فى العالم من متاع ، ويواجهون جميع الصعاب أيا كان نوعها وألوان العذاب والموت ببسالة لا تتزعزع ولا تلين »[١١٥] .

وكان القساوسة والأساقفة يؤلفون فيما بينهم طبقة رجال الكهنوت . فأما الأسقف فكان قسًّا اختير ليؤلف من عدة أبرشيات وعدد من القساوسة أسقفية واحدة . وكان الذين يختارونه لهذا المنصب من الوجهة النظرية وفى بداية الأمر هم القساوسة والشعب ، ولكن الذى كان يرشحه لمنصبه عادة قبل أيام جريجورى السابع هو البارون أو الملك ، وكان يختاره بعد عام ١٢١٥ كهنة الكنيسة الكبرى بالاشتراك مع البابا نفسه . وكان يعهد إليه بكثير من الشئون الدنيوية والكنسية ، كما كانت محكمته الأسقفية تنظر فى بعض القضايا المدنية وفى جميع القضايا التى تمس رجال الدين على اختلاف طبقاتهم . وكان من حقه

أن يعين القساوسة ويفصلهم ، ولكن سلطته على الأديرة ورؤسائها فى أسقفيته نقصت فى الوقت الذى نتحدث عنه لأن البابوات أخضعوا طبقات الرهبان لسلطانهم المباشر لخوفهم من سلطان الأساقفة . وكان إيراد الأسقف يأتى بعضه من الأبرشيات التابعة له ، ولكن معظمه كان يأتيه من الضياع التابعة لكرسيه ؛ وكان فى بعض الأحيان يعطى إحدى الأبرشيات من المال أكثر مما يأخذ منها . وكان المتقدمون لشغل مناصب الأساقفة يتعهدون عادة بأن يؤدوا — للملك أولائم للبابا فيما بعد — قدراً من المال نظير ترشيحهم ؛ وكانوا بوصفهم حكاماً دنيويين يطرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم من ميل لتعيين أقاربهم فى المناصب ذات الإيراد المجزى — وكان مما يشكو منه البابا إسكندر الثالث أنه « لما حرم الله الأساقفة من الأبناء وهبهم الشيطان أبناء الإخوة والأخوات »(١١٦) . وكان كثيرون من الأساقفة يحيون الحياة المترفة ، التى تليق بالسادة الإقطاعيين . ولكن كثيرين منهم كانوا يهبون أنفسهم لواجباتهم الروحية والإدارية . ولقد كان أساقفة أوربا ، بعد أن أصلح ليو التاسع نظام الأسقفيات ، خير الطوائف كلها فى العصور الوسطى من الناحيتين العقلية والخلقية .

وكان يرأس أساقفة كل إقليم كبير الأساقفة أو المطران ، وكان له هو وحده حق دعوة مجلس الكنيسة الإقليمى ورياسته . وكان بعض كبار الأساقفة ، بما أوتوا من قوة فى الخلق أو سعة فى الثراء ، يسيطرون على حياة أقاليمهم من نواحيها كلها تقريباً . وكان كبار أساقفة مدن همبرج ، وبرمن ، وكولونى ، وتريير ، ومينز ، ومجدبرج ، وسلزبرج الألمانية من السادة الإقطاعيين الأقوياء ، يختارهم الأباطرة فى كثير من الأحيان لتصريف شئون الإمبراطورية أو ليكونوا لهم سفراء أو مستشارين . وكذلك اضطلع كبار أساقفة ريمس ، ورون ، وكنتربرى ، بمثل هذا الواجب الخطير فى فرنسا ، ونورمندية ، وإنجلترا . ومن كبار الأساقفة — فى

طليطلة ، وليون ، ونربوتة ، وريمس ، وكولونى ، وكنتربرى — من أصبحوا « رؤساء » كباراً ذوى سلطان غير منازع على جميع رجال الدين فى أقاليمهم .

وكان كبار الأساقفة يجتمعون فى مجلس تتألف منه من حين إلى حين حكومة نيابية للكنيسة . وكانت هذه المجالس فى العهود المتأخرة تدعى لنفسها سلطات تعلو على سلطات البابا ؛ أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، عصر أعظم البابوات ، فلم يكن أحد فى أوربا الغربية ينازع سلطان أسقف رومة سلطاته العليا الدينية والروحية . وكانت فضائل ليو التاسع وهلدبراند قد كفّرت عن فضائح القرن العاشر ، كما أخذ سلطان البابوية ينمو بين صروف القرن الثانى عشر المتقلبة وكفاحه نمواً مكن إنوسنت الثالث من أن يدّعى أن هذا السلطان يمتد إلى جميع بقاع الأرض . فقد كان الملوك والأباطرة يمسكون بركاب خادم خدم الله ، ذى الثياب البيض ، ويقبّلون قدميه . وأضحى منصب البابوية فى ذلك الوقت أسمى ما يطمع فيه إنسان على ظهر الأرض ، فكانت أذكى العقول وقتئذ تتهيأ فى أشد مدارس اللاهوت والقانون صرامة لتشغل فيما بعد مكاناً بين رجال الكنيسة . وكان الذين يرقون منهم إلى الذروة رجالا من ذوى العقول الجبارة والقلوب الباسلة لا يخشون أن يحكموا قارة بأجمعها ؛ وقلما كان موت الواحد منهم يثنى غيره عن مواصلة السياسة التى وضعها هؤلاء الرجال هم ومجالسهم ؛ فلقد أتم إنوسنت الثالث ما لم يتمه جريجورى السابع ، وفاز إنوسنت الرابع والإسكندر الرابع بالنصر فى الكفاح الذى قام به إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ضد الأباطرة الذين أرادوا تضييق سلطان البابوية .

وكان سلطان البابا يؤول إليه من الوجهة النظرية من الحقوق التى منحها المسيح الحواريين . وكانت حكومة الكنيسة بهذا المعنى حكومة دينية — أى حكومة الشعب ، عن طريق الدين ، على أيدى خلفاء الله فى الأرض . لكن الكنيسة كانت بمعنى آخر حكومة دمقراطية : فقد كان فى وسع أى إنسان فى

العالم المسيحى ، عدا المصابين فى عقولهم أو أجسامهم ، والمحكوم عليهم فى جرائم ارتكبوها ، والمطرودين من حظيرة الدين ، والأرقاء — كان فى وسع أى إنسان عدا هؤلاء أن يُختار قسًّا أو بابا . وكان الأغنياء فى هذا المجال ، كالأغنياء فى كل مجال سواه ، تتاح لهم فرص أكثر من غيرهم لأن يُعِدوا أنفسهم لتسنم درجات هذا السلم الدينى الكثيرة ؛ غير أن الباب كان مفتوحاً لجميع الناس على السواء ، وكانت المواهب العقلية ، لا الآباء والجدود ، هى التى يعتمد عليها النجاح فى أكثر الأحيان . وقد خرج مئات من الأساقفة وعدد كبير من البابوات من بين صفوف الطبقة الفقيرة(١١٧) ، وكان سريان هذا الدم الجديد من جميع الطبقات فى طوائف رجال الدين بمثابة غذاء مستمر لعقولهم ، وقد « ظل عصوراً طوالا الاعتراف العملى الوحيد بمساواة الناس بعضهم بعضاً »(*) .

ولقد مر بنا أن حق اختيار البابا قد اقتصر على « الأساقفة الكرادلة » المقيمين فى رومة ؛ ثم زيد عدد هؤلاء الكرادلة السبعة تدريجا بمن ضمهم البابوات إليهم من أمم مختلفة ، حتى أضحوا كلية مقدسة مؤلفة من سبعين عضوا يمتازون من غيرهم بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأرجوانية ، وأضحوا طبقة جديدة فى سلم الدرجات الدينية لا يعلو عليهم إلا البابا نفسه .

(*) من كتاب جيمس وستفول طمسن James Westfall Thomsou « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى Economic and Social History of the Middle Ages المطبوع بنيويورك سنة ١٩٢٨ ص ٦٠١ . انظر أيضاً قول فلتير : « كانت الكاثوليكية تمتاز على الدوام بأنها تخص بذوى الجدارة ما تختص به الحكومات الأخرى ذوى النسب العريق » . مقال فى آداب أوربا وأخلاقها (Esssay on the Manners and Morals of Europe) فى مجموعة مؤلفاته المطبوعة فى نيويورك عام ١٩٢٧ المجلد الثالث عشر ص ٣٠) ويقول هتلر إن هذا هو مصدر السلطة القوية التى لا يصدقها العقل والتى تستقر فى هذه المنظمة المعمرة . ذلك أن هذا الحشد الكبير من الروساء الدينيين ، بفضل السنة التى جرى عليها دائما دون استثناء سنة سد ما يطرأ على صفوفه من نقص بين أدنى طبقات الأمم ، يفضل هذه السنة يحتفظ هذا الحشد بما بينه وبين عالم العاطفة الشعبية من رابطة غزيرية ، ويضمن لنفسه فوق هذا قدراً من الطاقة والنشاط والقوة سيظل بهذه الصورة موجوداً إلى أبد الدهر فى جمهرة الشعب . من كتاب كفاحى Mein Kamp المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٤٣) .

وكان البابا يحكم دولة روحية بلغت فى القرن الثالث عشر ذروة مجدها ، ويساعده فى حكمها أولئك الرجال وطائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً « الكوريا » Curia أو المحكمة التنفيذية والقضائية . وكان من حقه وحده أن يدعو للانعقاد مجلسا عاما من الأساقفة ، ولم يكن لما يصدرونه من الشرائع أية قوة إلا إذا صدق عليه البابا بمرسوم من قبله . وكان له الحرية المطلقة فى تفسير قانون الكنيسة ، وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفاءه من قواعده . وكان هو المحكمة العليا التى تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذى يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى ، أو يسلك شخصاً فى زمرة القديسين . وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبى البابا على شئونهم . وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية ، وأمم كالإنجليز ، والمجر ، والأسبان تعترف بأنه سيدها الإقطاعى وترسل إليه الجزية ؛ وكان فى وسعه أن يرقب بعينيه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة ؛ والقساوسة ، والرهبان ، المنبثين فى كل مكان ، فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها فى أية دولة من الدول . وهكذا عاد إلى رومة شيئاً فشيئاً ، بدهاء بابواتها ، ما كان لها من سلطان على أوربا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة .

الفصل السابع

البابوية فى أوجها ١٠٨٥ — ١٢٩٤

ولم يقض على النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة حول المناصب الكنسية بعد عهد جريجورى السابع وانتصار الإمبراطورية فى الظاهر . بل ظل هذا النزاع قائماً جيلا من الزمان ، تولى فيه عدة أحبار ، وانتهى بتراض بين الطرفين فى اتفاق ورمز Worms (١٢٢٢) الذى عقد بين البابا كلكستس الثانى Calixtus II والإمبراطور هنرى الخامس . وقد سلم هنرى بمقتضى هـــذا الاتفاق بحق الكنيسة فى « تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا » ، ورضى أن « يجرى » انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة « حسب القوانين الكنسية » ، أى أن يقوم به رجال الدين أو الرهبان ذوو الشأن — « وأن يكون بمأمن من كل تدخل » واستخدام للمال . ووافق كلكستس على أن يجرى انتخاب الأساقفه ورؤساء الأديرة الذين يمتلكون أرضاً من التاج فى حضور الملك ؛ وأنه إذا قام النزاع حول الانتخابات كان من حق الملك أن يفصل بين المتنازعين بعد استشارة أساقفة الإقليم ؛ وأن على الأسقف أو رئيس الدير الذى يمتلك أرضاً من الملك أن يؤدى له جميع الالتزامات الإقطاعية التى يجب على التابع أن يؤديها للمتبوع[١١٨] . وكانت اتفاقات مماثلة لهذا الاتفاق قد عقدت قبل ذلك الوقت مع إنجلترا وفرنسا . وادعى كل من الطرفين أنه هو المنتصر ، والحق أن الكنيسة تقدمت بهذه الاتفاقات خطوة كبيرة نحو استقلالها بشئونها ، ولكن الروابط الإقطاعية ظلت تعطى الملك الكلمة المسموعة فى اختيار الأساقفة فى جميع أنحاء أوربا[١١٩] .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن انقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت إحداهما لكرسى البابوية إنوسنت الثانى واختارت الثانية أنكليتس الثانى Anacletus II . وكان أنكليتس ينتمى إلى أسرة بيرليونى Pierleoni الشريفة ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه « الجد اليهودى » ؛ وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف الخاص صديقاً لليهود ، برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى Lothaire II يقول إن « مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس » — وقد نسى قوله هذا أصل بطرس نفسه . وأيدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم إلا واحداً منهم ، إنوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى أوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لأنكليتس ، واتهامه بأنه يضاجع المحرمات عليه ، وينهب الكنائس المسيحية ليغنى بأموالها أصدقاءه اليهود ؛ ولكن أهل رومة ظلوا يؤيدونه إلى يوم وفاته (١١٣٨) . وأكبر الظن أن قصة أنكليتس هى مصدر خرافة أندريس Andreais التى ذاعت فى القرن الرابع عشر عن « البابا اليهودى »[١١٩] .

وكان هدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) مثلا آخر لما يستطيع أن يرقى إليه من الدرجات الرفيعة ذوو المواهب السامية . فقد ولد من أسرة وضيعة فى إنجلترا ، وجاء إلى أحد الأديرة يطلب الصدقات . وارتفع نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear بجدارته وحدها إلى منصب رئيس الدير وإلى كردينال ثم إلى بابا . ووهب أيرلندة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وأرغم بربرسا على أن يقبل قدميه ، وكاد يحتال على الإمبراطور العظيم ويقنعه بأن يسلم بحق البابوات فى أن يتصرفوا حسب مشيئتهم فى عروش الملوك . ولما مات هدريان اختارت كثرة الكرادلة إسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) واختارت أقلية منهم ڤكتور الرابع . وأراد بربرسا أن يستعيد السلطة التى كانت للأباطرة الألمان

على البابوية ، فدعا كلا الرجلين لأن يعرضا عليه مطالبهما . فأما الإسكندر فرفض الطلب ، وأما ڤكتور فقبله ، وأيد بربرسا فى مجمع پاڤيا المقدس (١١٦٠) اختيار ڤكتور لكرسى البابوية ، فما كان من الإسكندر إلا أن أصدر قراراً بحرمان فردريك ، وأعفى رعايا الإمبراطور من طاعته فى الشئون المدنية ، وساعد الثورة القائمة عليه فى لمباردية . وأدّل انتصار الجامعة اللمباردية فى لنيانو (١١٧٦) فرديك ، فعقد الصلح مع الإسكندر فى مدينة البندقية ، وقبل قدمى البابا مرة أخرى . وأرغم هذا البابا نفسه هنرى الثانى ملك إنجلترا على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت Becket ، وأن يتلقى هناك درساً فى الطاعة من قساوسة كنتربرى . وكان كفاح الإسكندر زمنا طويلا ونصره المؤزر فى هذا الكفاح هما اللذين مهدا السبيل لبابا من أعظم البابوات على بكرة أبيهم .

ولد إنوسنت الثالث فى أنيانى القريبة من رومة فى عام ١١٦١ . وكان وهو لا يزال يسمى لوتاريودى كنتى Lotariodei Conti ، ابن كونت سنيي Segni يتصف بجميع المزايا التى يمتاز بها أبناء الأشراف ممن نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة . ثم درس الفلسفة واللاهوت فى باريس ، والشريعة الكنسية والمدنية فى بولونيا Bologna ، ولما عاد إلى رومة استطاع بمهارته الدبلوماسية ، وعلمه الواسع بالعقائد الدينية ، وصلاته بأصحاب النفوذ ، أن يرقى رقياً سريعاً فى المناصب الدينية ؛ فكان وهو فى الثلاثين من عمره شماساً أكبر ، ولما بلغ السابعة والثلاثين اختير بابا بإجماع الآراء وإن لم يكن قد أصبح قسيساً (١١٩٨) ، وجلس على كرسى البابوية فى اليوم التالى ليوم اختياره ، وكان من حسن حظه أن الإمبراطور هنرى السادس الذى تمت له السيادة على إيطاليا وصقلية قد مات فى عام ١١٩٧ وترك عرش الإمبراطورية لفردريك الثانى ، وهو طفل فى الثالثة من عمره . وانتهز إنوسنت هذه الفرصة السانحة ، وكان فى استخدامها جد عنيف : فقد طرد رئيس بلدية رومة الألمانى من منصبه ، وأخرج الملتزمين الألمان من

اسبوليتو Spoletp وپروچيا Perugia ، وتقبل خضوع تسكانيا ، وأعاد حكم البابا فى الولايات البابوية ، واعترفت به أرملة هنرى سيدا أعلى للصقليتين ، وقبل هو أن يكون وصياً على ابنها ، ولم تمض عشرة شهور حتى كان إنوسنت سيد إيطاليا بلا منازع .

ويدل ما لدينا من الشواهد على أنه كان أعظم أهل زمانه عقلا ، فقد ألف وهو فى بداية العقد الرابع من عمره أربعة كتب فى علوم الدين ، تمتاز بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، ولكن هذه الكتب قد طغى عليها سنا شهرته السياسية . وكانت عباراته التى ينطق بها فى الشئون البابوية تمتاز بالوضوح والتفكير المنطقى السليم ، وقوة العبارة ؛ ولولا منصبه الدينى لبلغ فى الفلسفة ما بلغه أكويناس ، ولبلغ فى الأدب مبلغ أبلار وإن امتاز عنه بصدق العقيدة . وقد أكسبته عيناه الثاقبتان ، وأكسبه وجهه الأسمر ، مهابة لم ينتقص منها قصر قامته . ولم تكن تعوزه الفكاهة ، وكان يجيد الغناء ، ويقرض الشعر ، وكان رقيق الحاشية ، وفى وسعه إذا شاء أن يكون رحيما ، صبورا ، ومتسامحا فيما يمس شئونه الخاصة . أما فيما يختص بعقيدته وأخلاقه ، فلم يكن يقبل أى انحراف عن أحكام الكنيسة أو مبادئها الخلقية ؛ وإذ كان عالم الإيمان والأمل المسيحيين هو الدولة التى دعى لحمايتها فقد كان يسعه كما يسع غيره من الملوك أن يدافع عن دولته بحد السيف إذا لم تكف الكلمة للدفاع عنها . وكان وهو الذى ولد فى مهد الثراء يعيش عيشة البساطة الفلسفية ، طول حياته ، طاهر اليد فى عصر فشت فيه الرشوة فى كل مكان[١٢٠] . وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفى هيئة الكرادلة أن يتقاضوا أجرا على ما يقومون به من أعمال . وكان يحب أن يرى كرسى الرسول بطرس يثرى من مال العالم كله ، ولكنه كان يصرف أموال البابوية بنزاهة معقولة . وكان دبلوماسيا بارعا ، وكان له نصيب معتدل من النقائص الخلقية التى تلازم هذه الحرفة الممتازة[١٢١] . وكأن الزمن قد عاد به

أحد عشر قرنا إلى الوراء ، فجعله إمبراطورا رومانيا رواقيا أكثر منه مسيحيا ، لا يشك قط فى أن من حقه أن يحكم العالم .

وكان من الطبيعى ، وذكرى هؤلاء البابوات الأقوياء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل رومة ، أن يقيم إنوسنت سياسته على الاعتقاد بقداسة منصبه ورسالته . ولهذا كان شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط أمام الجماهير عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته . وكان صادق الإيمان بأنه هو وارث السلطات التى يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، فلم يكن فى مقدوره أن يعترف بأن لأحد ما له هو من السلطان . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب بل ترك له حكم العالم بأجمعه »(١٢٢). ولم يكن يدعى لنفسه السلطة العليا فى الشئون الأرضية أو الزمنية الخالصة ، اللهم إلا فى الولايات البابوية(١٢٣) ، ولكنه كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية كما تسمو الشمس على القمر . وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذى استمسك به جريجورى السابع — وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان فى دولة عالمية يتولى البابا رياستها ، على أن تكون له الكلمة العليا فى جميع الشئون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الدينية ، وأوشك فى وقت ما أن يحقق هذا الحلم ، فقد نفذ جزءاً من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، إذ خضعت الكنيسة اليونانية إلى أسقف رومة ؛ واستطاع أن يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير المخيط ؛ وأخضع بلاد العرب وأرمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسى البابوى فى رومة ؛ واستطاع أن يكون هو صاحب الحق فى تعيين رجال الدين فى مناصبهم ؛ واندفع فى سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوربية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل . هذا فى

فى خارج إيطاليا ، أما فى إيطاليا نفسها فكانت سياسته أقلّ من هذا نجاحاً : فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الإيطالية ، ونغّص عليه أعداؤه السياسيون فى رومة حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان فى وقت من الأوقات يخشى المقام فى عاصمته . كذلك أفلح الملك شقير Severre النرويجى (١١٨٤ — ١٢٠٢) فى مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه[١٢٤] هو وبلاده ، وتجاهل فليب الثانى ملك فرنسا أمره حين عقد الصلح مع إنجلترا ، وإن كان قد خضع لما أصر عليه البابا من أن يعيد زوجته التى هجرها ، واقتنع ألفنسو التاسع صاحب ليون Leon أن يفارق برنجاريا Berengaria التى تزوجها لأنها من قريباته المحرمات عليه . واعترفت البرتغال ، وأرغونة ، وبلاد المجر ، وبلغاريا ، بأنها إقطاعيات بابوية ، وأعطت البابا جزية سنوية ، ولما رفض الملك جون أمر البابا بتعيين لانجتن Langton كبيراً لأساقفة كنتربرى اضطره البابا بقرار التحريم الذى أصدره على إنجلترا وبدهائه السياسى أن يضم إنجلترا إلى الإقطاعات البابوية . ووسع إنوسنت سلطاته فى ألمانيا بأن أعان أتو الرابع على فليب صاحب سوابيا Swabia ، ثم أعان فيليب على أتو ، وحصل فى كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين ، فضلا عن تحرير الولايات البابوية مما كان يتهددها من التطويق ؛ وأذكر الإمبراطور أن بابا من البابوات هو الذى « نقـــل » السلطة الإمبراطورية من اليونان إلى الفرنجة ، وأن شارلمان لم يصبح إمبراطوراً إلا بعد أن مسحه البابا وتوّجه ، وأن فى مقدور البابوات أن يستردوا ما منحوا . وحسبنا دليلا على سلطان إنوسنت ما وصفه به زائر بيزنطى إلى رومة إذ قال إن إنوسنت « ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين »[١٢٥]

وقد أحبط ما بذله الحكام الزمنيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضاء البابا ، ورصد المال فى الكرسى البابوى لمعونة القساوسة المحتاجين ،

وبذل ما فى وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم ؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عرَّف الكنيسة بأنها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هى جميع رجال الدين المسيحيين ؛ وقاوم عادة استيلاء الأساقفة أو رؤساء الأديرة على العشور التى تجمع من الأبرشيات وحرمان قساوسة الأبرشية منها[١٢٦] . وعمل على إصلاح ما كان فى أديرة الرجال والنساء من تراخ وإهمال بأن نظم زيارات متتابعة لهذه الأديرة لمعرفة أحوالها والتفتيش عليها . واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات أن يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين ، وبين القساوسة والأساقفة ، والأساقفة والبابوات . ورفع من شأن المجلس البابوى فجعله محكمة قديرة للمشورة ، والإدارة ، والقضاء ، حتى أضحت وقتئذ أقدر هيئة حاكمة فى زمانها ، وقد ساعدت إجراءاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها . وأكبر الظن أن إنوسنت نفسه كان أعظم أهل زمانه تبحراً فى القانون ، وأنه كان قادراً على أن يجد فى المنطق والسوابق سنداً قانونياً لكل قرار يصدره . وكان العلماء والمشترعون يهرعون إلى « مجمع الكرادلة » حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا ، ليفيدوا من نقاشها وأحكامها فى المسائل القانونية المدنية والدينية ؛ وقد أسماه بعضهم « أبا القانون Pater iuris [١٢٧] ، وأسماه آخرون حباً وتفكهاً سليمان الثالث[١٢٨]

وكان آخر ما ناله من نصر بوصفه مشترعاً وبابا أن رأس فى عام ١٢١٥ مجلس لاتران الرابع الذى عقد فى كنيسة القديس يوحنا برومة . وأقبل على هذا المجلس العام الثانى عشر ألف وخمسمائة من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وغيرهم من علية رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الأمم ذات الشأن فى العالم المسيحى المتحد . وكانت خطبة الافتتاح التى ألقاها البابا اعترافا وتحديا غاية فى الجرأة إذ قال « إن أكبر سبب فى فساد الخلق هو فساد رجال الدين أنفسهم ، وهذا هو مصدر كل ما فى العالم المسيحى من شرور : فقد

انمحى الإيمان ، وطمست معالم الدين . . . ووطئت العدالة بالأقدام ، وكثر الخارجون على الدين ، وجرؤ الناس على الانشقاق ، وازداد غير المؤمنين قوة ، وانتصر المسلمون[١٢٩] » . ورضيت سلطات الكنيسة وعقولها المجتمعة فى هذا المجلس أن يسيطر عليها رجل واحد سيطرة تامة ، فكانت أحكامه هى قرارات المجلس ، وقبلت هذه السلطات أن يعيد هو تعريف عقائد الكنيسة الأساسية ، وأن يحدد معناها ؛ وعرِّفت لأول مرة تعريفاً رسمياً عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه . وقبل المجلس قرارات البابا التى تطلب إلى غير المسيحيين فى البلاد المسيحية أن يلبسوا شارة خاصة تميزهم من غيرهم ؛ واستجاب بحماسة إلى دعوته بشن حرب على الملاحدة الألبجنسيين ؛ ولكنه أيضاً أيده فى الاعتراف بنقائص الكنيسة وعيوبها ، وشَهر ببيع المخلفات الزائفة ، وانتقد انتقاداً شديداً صكوك الغفران التى « لا يتورع بعض رجال الدين . . . عن منحها ويسرفون فى ذلك إسرافاً بعيداً عن الحكمة ، والتى أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة ، وفقدت التوبة ما كان لها من قوة »[١٣٠] . وحاول المجلس أن يصلح حياة الرهبنة إصلاحاً شاملا ، ونددد بإدمان رجال الدين الخمر وما انحدروا إليه من فساد فى الأخلاق ، وزواج فى الخفاء ؛ واتخذ بإزائهم إجراءات شديدة ؛ ولكنه رفض ما ادعاه الألبجنسيون من أن كل اتصال بين الرجال والنساء إثم . وملاك القول أن مجلس لاتران الرابع كان فى كثرة من حضره ، وفى اتساع مداه وآثاره ، أهم مجمع عقدته الكنيسة بعد مجلس نيقية .

وبعد أن بلغ إنوسنت ذروة المجد فى حياته أخذ ينهار مسرعا نحو منيته العاجلة . ذلك أنه قد انهمك فى توسيع سلطانه وإدارة أعماله انهماكاً دائماً لم يخلد فيه قط إلى شيء من الراحة ، وأنهك قواه وهو لا يزال فى الخامسة والخمسين من عمره . ومن أقواله وهو يتحسر : « ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه فى الشئون السماوية ، بل إنى قلما أجد وقتاً للتنفس ، ولقد كرست حياتى لغيرى

حتى كدت أصبح غريباً عن نفسى[١٣١] » ، ولعله كان يسعه فى آخر سنة من حياته أن يرجع بذاكرته إلى أعماله ، وأن يحكم عليها حكماً موضوعياً أصدق من حكمه عليها فى غمرة النزاع الذى كان وقت أن قام بها . لقد أخفقت الحملات الصليبية التى نظمها لاسترداد فلسطين ، وكانت الحملة التى نجحت بعد وفاته هى التى أبيد فيها الألبجنسيون فى جنوبى فرنسا بوحشية مجردة من كل رحمة . نعم إنه نال إعجاب مواطنيه ، ولكنه لم ينل حبهم كما ناله جريجورى الأول أو ليو التاسع ، وقد شكا بعض رجال الدين من أنه كان ملكاً أكثر منه رجل دين ؛ وظن القديس لتجاردس Lutgardis أنه لن يستطيع الفرار من النار إلا بشق الأنفس[١٣٢] ؛ وحتى الكنيسة نفسها امتنعت عن أن تسلكه فى عداد القديسين وفيهم من هم أقل وأكثر منه إطاعة لصوت الضمير ، وإن كانت تفخر بعبقريته وتشكر له صادق جهوده .

ولكننا لا ينبغى لنا أن نضن عليه بأنه رفع الكنيسة إلى ذروة مجدها ، وأوشك أن يحقق ما كانت تحلم به من أن تصبح دولة عالمية مسيطرة على شئون الناس الأخلاقية . وكان هو أقدر حكام زمانه ، يعمل لتحقيق أغراضه ببعد نظر ، وإخلاص ، ومزيج من الإصرار والمرونة ، وجهود لايكاد يصدقها الإنسان ؛ فلما مات فى عام ١٢١٦ كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم ، وعظيم الأبهة ، وبعد الصيت ، وقوة السلطان ، ما لم تعرف له نظيراً قبل ، وما لم تستمتع به بعد إلا فى فترات جد نادرة وقصيرة .

وليست لهونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) منزلة عالية فى سجلات التاريخ القاسية ، لأنه كان لرقة حاشيته عاجزاً عن أن يخوض بقوة الحرب الناشبة بين الإمبراطورية والبابوية ؛ أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فقد خاض غمار هذه الحرب بعزيمة تكاد تصل إلى درجة التعصب ، وإن كان قد بلغ الثمانين من العمر حين جلس على كرسى البابوية ؛ وقد حارب فردريك

الثانى وانتصر عليه انتصاراً كان من أثره آن تأخر عصر النهضة مائة عام ؛ وهو الذى نظم محكمة التفتيش ، ولكنه كان إلى ذلك مخلصاً إخلاصاً لا يرقى إليه الشك ، تقيا إلى حد البطولة ، قويا فى دفاعه عما حسبه أثمن ما يملكه بنو الإنسان وهو الدين الذى جاء به المسيح .

وهل كان هـــذا الرجل قاسياً غليظ القلب ، وهو الذى حمى كردينال فرانسس وهداه بحكمته ، ولولا هذا لكان من الجائز أن يصبح من الملحدين المارقين . وقضى إنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) على فردريك الثانى ، وأقر استخدام محكمة التفتيش للتعذيب[١٣٣] . وكان نصيراً صادقاً للفلسفة ، مساعداً للجامعات ، مؤسساً لمدارس القانون . وكان اسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٦١) محباً للسلم ؛ رحيما ، شفيقاً عادلا « أدهش العالم ببعده على الاستبداد »[١٣٤] ومعارضته لصفات أسلافه العسكرية »[١٣٥] ، يفضل التقى عن السياسة ؛ وقد مات « كسير القلب » كما يقول مؤرخ فرنسسكانى « ولم يتقطع يوما عن التفكير فيما بين المسيحيين من نزاع متزايد رهيب »[١٣٦] ؛ وعاد كلمنت الرابع (١٢٦٥ — ١٢٦٨) إلى امتشاق الحسام ، ودبر هزيمة مانفرد Manfred ، وقضى على أسرة هوهنستاوفن وعلى ألمانيا الإمبراطورية . ولما استعاد اليونان مدينة القسطنطينية تعرض الاتفاق القائم بين الكنيسة اليونانية والرومانية لخطر الزوال ؛ ولكن جريجورى العاشر (١٢٧١—١٢٧٦) استحق حمد ميخائيل پليلجوس Miehael Palealogus بمقاومته مطامع شارل دوق أنجو فى الاستيلاء على القسطنطينية ؛ فلما عاد إمبراطواطور الروم إلى ملكه أخضع الكنيسة اليونانية إلى رومة ، وعادت البابوية إلى ما كانت عليه من تفوق .

الفصل الثامن

مالية الكنيسة

لقد كانت الكنيسة فى واقع الأمر دولة أوربية فوق الدول جميعها : تضطلع بشئون العبادات ، والأخلاق ، والتعليم ، والزواج ، والحروب العامة ، والحروب الصليبية ، والموت ، والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكا فعليا فى تصريف الشئون الزمنية ، وتقيم أكثر الصروح نفقة فى تاريخ العصور الوسطى ، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدر من مصادر الإيراد .

وكانت العشور أكبر مصادر هذا الإيراد : ذلك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمان على جميع الأراضى التى يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عيناً أو نقداً إلى الكنيسة المحلية ؛ كذلك فرض على كل أبرشية بعد القرن العاشر أن تبعث بجزء من عشورها إلى مطران الأسقفية . وأجازت مبادئ الإقطاع أن تقطع عشور الأبرشية للغير ، وترهن ، ويوصى بها ، وتباع ، شأنها فى هذا شأن جميع الأملاك أو الإيراد ، فلم يكد يحل القرن الثانى عشر حتى نشأت شبكة مالية معقدة كانت الكنيسة المحلية وقسيسها هما القائمين على جمع عشورها ولم يكونا من مستهلكيها . وكان ينتظر من القس أن « يصب اللعنات من أجل عشوره » على حد قول الإنجليز — أى أن يُخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها أو يزورون فى إيرادهم ؛ لأن الناس فى تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التى يرون أن أعمالها لازمة لنجاتهم ، كما يكرهون فى هذه الأيام أداء الضرائب للدولة . فنحن نسمع عن ثورات يقوم بها دافعو العشور من آن إلى آن : فقد حدث فى رجيوإميليا Reggio Emilia عام

١٢٨٠ ، كما يقول الراهب سلمبين Salimbene ، أن تحدى الناس قرارات الحرمان والتحريم ، وتعاهدوا على « ألا يؤدى أحد منهم أى عشور إلى رجال الدين . . . وألا يجلسوا معهم على مائدة الطعام . . . وألا يقدموا لهم طعاما أو شرابا — وهو حرمان معكوس ، اضطر معه الأسقف إلى أن يترضاهم[١٣٧] .

وكان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هو أراضيها التى حصلت عليها بالهبة أو الوصية ، وبالبيع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضى البور بأيدى جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية . وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الإقطاعية أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ؛ وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب فى صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن فى الأراضى المخصصة للموتى الصالحين[١٣٨] . وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين ، فإن القس كان هو الذى يدعى فى العادة إلى كتابة الوصايا . وقد أصدر البابا إسكندر الثالث فى عام ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا فى حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين[١٣٩] ، وكانت الكنيسة وحدها هى المختصة بإثبات صحة الوصايا . وكانت الهبات أو الوصايا لكنيسة ما فى نظر الناس هى أول الطرق الموثوق بها للنجاة من آلام المطهر . وكان عدد كبير من الوصايا للكنيسة ، وبخاصة قبل عام ١٠٠٠ م يبدأ بهذه العبارة : Adventante mudi vespero ، ومعناها أنه « لما كانت أمسية العالم قريبة »[١٤٠] . ولقد سبق القول إن بعض الملاك كانوا ينزلون عن أموالهم إلى الكنيسة بوصف ذلك تأميناً لهم من العجز : فكانت الكنيسة تؤدى للراهب راتباً سنويا وترعاه فى حالتى المرض والشيخوخة ، على أن تتسلم تركته خالية من جميع الحقوق العينية حين وفاته[١٤١] . وكانت بعض الأديرة « توّاخى » المحسنين إليها فتمنحهم نصيباً من تخفيف عذاب المطهر ، وهو

التخفيف الذى ناله الرهبان بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم[١٤٢] . ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم إلى الكنيسة بأثمان بخسة ليحصلوا ببيعها على ما يحتاجونه من المال ، بل إنهم استدانوا الأموال من الهيئات الكنسية بضمان ممتلكاتهم أو برهنها لها ؛ وكثيراً ما كانت هذه الممتلكات تؤول إلى تلك الهيئات لعجز أصحابها عن أداء ما عليها من الديون . ومن الناس من كانوا يموتون وليس لهم ورثة طبيعيون فيتركون أملاكهم كلها للكنيسة ، من ذلك أن ماتلدا دوقة تسكانيا Countess Matilda of Tuscany حاولت أن توصى للكنيسة بما يكاد يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها .

وإذ كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها ، وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة فى الأحوال العادية من الضرائب الزمنية[١٤٣] ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون ، فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى ، أو يمتلك دير للرجال أو النساء ، عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله نحو اثنتى عشرة بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين[١٤٤] . فقد كان أسقف لانجر Langres مثلا يمتلك المقاطعة كلها . وكان دير القديس مارتن فى تور يحكم عشرين ألفا من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألفى ضيعة ، وكان لدير لورسش Lorsch مثل هذا القدر من الضياع ، وكان لدير لاس هولجاس Las Huelgas فى أسبانيا أربع وستون بلدة[١٤٥] ؛ وكانت الكنيسة فى قشتالة تمتلك حوالى عام ١٢٠٠ م ربع الأراضى الزراعية ؛ وكانت فى إنجلترا تمتلك خمسها ، وفى ألمانيا ثلثها ، وفى ليفونيا Livonia نصفها[١٤٦] . على أنه يجدر بنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه التقديرات تقريبية ، وليست كلها مما يوثق بصحته . وأضحت هذه الثروة المكدسة موضع حسد الدولة ومطمعها . فقد صادر شارل مارتل أملاك الكنيسة ليمول بها حروبه ، وأصدر لويس التقى القوانين التى تحرم على من كان له أبناء أن يوصى بأملاكه إلى الكنيسة[١٤٧] .

وجرّد هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا كثيراً من الأديرة من أراضيها ، وقال فى تبرير هذا العمل إن الرهبان قد نذروا أن يعيشوا فقراء ، ووضعت بعض القوانين الإنجليزية الخاصة بالأموال المرصودة قيوداً على انتقال الأملاك إلى « الهيئات » أى الجماعات الكنسية . واستولى إدورد الأول من الكنيسة الإنجليزية فى عام ١٢٩١ على عُشر أملاكها ، كما استولى منها فى عام ١٢٩٤ على نصف دخلها السنوى . وبدأ فليب الثانى سُنّة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وجرى القديس لويس على هذه السنّة وجعلها فليب الرابع شريعة مقررة . ولما تقدمت الصناعة والتجارة ، وكثرت النقود ، وارتفعت الأثمان ، أصبح دخل الأديرة والأسقفيات الآتى معظمه من الرسوم الإقطاعية التى كانت مقدرة من قبل على أساس مستوى الأثمان المنخفضة ، والتى لم يكن يستطاع رفعها فى هذه الأيام ، نقول أصبح دخل الأديرة والأسقفيات لايفى بمعيشة من فيها ، دع عنك ترفهم[١٤٨] ، فلم يحل عام ١٢٧٠ حتى كانت كثرة الكنائس والأديرة فى فرنسا مستغرقة فى الدين ؛ ذلك أنها كانت قد استدانت من أصحاب المصارف بفوائد مرتفعة لتفى بمطالب الملوك ؛ وكان هذا من أسباب ضعف نشاط البناء فى فرنسا فى آخر القرن الثالث عشر .

وزاد البابوات فى فقر الأسقفيات بما فرضوه من الضرائب على أملاكها وإيرادها ليمولوا الحروب الصليبية فى بادئ الأمر ، وليوفوا بنفقات الكرسى البابوى المطردة الزيادة فيما بعد ؛ وكان لا بد من وجود مصادر للدخل المركزى كلما وسعت البابوية مجال أعمالها وزادتها تعقيداً . وتحقيقاً لهذه الغاية أمر البابا إنوسنت الثالث (١١٩٩) جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى كرسى القديس بطرس جزءاً من أربعين جزءاً من إيرادهم فى كل عام ، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء ، وعلى الكنائس الداخلة فى دائرة الحماية البابوية مباشرة . وفرض البابوات على كل أسقف فى أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة

النظرية جميع إيراده فى السنة الأولى ، ولكنها كانت من الوجهة العملية نصف هذا الإيراد ؟ وذلك نظير تثبيته فى منصبه . وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسى البابوى بنساً ستويا (١٠٠ من الريال الأمريكى) يعرف باسم « بنسات بطرس » . وقد جرت العادة على أن تفرض رسوم على القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية . وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسى فى بعض الحالات ، كالإذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوى القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج ، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التى يتطلبها هذا العمل . كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ، ومن الحجاج القادمين إلى رومة . وقد حسب دخل الكرسى البابوى فى عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوربية الزمنيين مجتمعين[١٤٩] . ولقد تلقى البابا من إنجلترا فى عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثال إيراد التاج[١٥٠] .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد فى هذا العصر . فقد أعلن آرنلد الرشيائى Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك مآله النار لا محالة[١٥١] . وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses ، والباترين Paterines ، والكاثارى Cathari على ذلك فشنوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح . وكان من قصائد الهجاء المتداولة فى القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها « الإنجيل حسب الماركات الفضية » مطلعها : « وقال البابوات للرومان فى تلك الأيام : إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فليكن أول ما تقولون : أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان ؟ فإذا لم يعطكم شيئا فألقوا به فى الظلمات الخارجية »[١٥٢] . وإنا لنجد فى جميع آداب ذلك الوقت — فى الأقاصيص الخرافية ، وفى الأغانى ، وفى قصة الوردة Roman de La Rose

وفى قصائد الشعراء الجائلين ، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين ، وفى قصائد دانتى ، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم[١٥٣] . وقد ندد ماثيوپاريس Mathew Paris أحد الرهبان الإنجليز بجشع رجال الدين الإنجليز والرومان الذين يعيشون منعمين من أملاك المسيح[١٥٤] . وكتب هيوبرت ده رومان Hubert de Romans رئيس طائفة الرهبان الدمنيك عن « بائعى صكوك الغفران البابوية الذين يفسدون المحاكم الدينية بما يقدمونه من الرشا »[١٥٥] . ويتحدث پترس كانتور Petrus Cantor وهو نفسه قسيس ، عن القساوسة الذين يبيعون القداس أو أدعية الغروب[١٥٦] ؛ وشنع بكت Beckte رئيس أساقفة كنتربرى بمجلس القضاء البابوى الذى يباع ويشترى ، وينقل عن هنرى الثانى قولا له يفخر فيه بأن جميع أعضاء مجلس الكرادلة يتقاضون منه أجورا[١٥٧] . والحق أن تهم الرشوة والفساد قد وجهت إلى كل حكومة ظهرت فى التاريخ . وإن فى هذه التهم لشيئاً من الحقيقة فى جميع الأحوال ، غير أن فيها كذلك بعض المبالغة فى حوادث منشؤها أمثلة صاخبة حدثت فى بعض الأوقات ، ولكن هذه التهم تثير أحياناً غضباً يكاد يبلغ حد الثورة ، ولقد كان يسع الأهلين الذين أقاموا بدريهماتهم الكنائس لمريم العذراء أن يحتجوا وهم غضاب على جشع الكنيسة مجتمعة ، وكم من مرة قتلوا قسا عنيداً[١٥٨] .

واشتركت الكنيسة نفسها فى نقد جشع رجال الدين ، وبذلت كثيراً من الجهود للقضاء على شره رجالها وترفهم . فلقد حاول مئات من رجال الدين من القديس بطرس داميان St. Peter Damian ، والقديس برنار St. Bernard والقديس فرانسس ، والكاردينال ده ڤترى Cardinal de Vitry إلى صغار الرهبان تقليل هذه المساوئ[١٥٩] ، وإن ما كتبه هؤلاء المصلحون من رجال الكنيسة لهو أهم المصادر التى عرفنا منها ما نعرفه عن هذه المساوئ . وقام عدد من طوائف الرهبان ينادون بضرورة إصلاحها ، ويضربون بأنفسهم المثل لها

يجب أن يكون عليه هذا الإصلاح ، وندد البابا اسكندر الثالث ومجلس لاتران الذى عقد فى عام ١١٧٩ بفرض الأجور على أداء مراسم التعميد ، أو مسح المشرفين على الموت ، أو القيام بمراسم الزواج ، ودعا جريجورى العاشر مجلس ليون الجامع سنة ١٢٧٤ خاصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإصلاح الكنيسة . ولم يكن البابوات أنفسهم فى ذلك العصر ممن يبدو عليهم ميل إلى الترف ، وقد كسبوا مالهم بالانهماك فى أداء واجباتهم المنهكة . وإن من المآسى التى تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها إذا لم يعن بتنظيمها ، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية .

obeikandl.com